

طرابلس . لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٢١٩٥٢ . ٦٣١٢٨٩
تلكس ٢٣٧٧٨ LE عصام

غرازيلا

تأليف شاعر فرنسا الكبير

لامارتين

تعريب

ناصر عكاري

مراجعة

الدكتور محمد عزت نصر الله

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس لبنان: تلفون ٦٢١٩٥٢

الفصل الأول

استدعْت بعضُ الأعمالِ وجودَ إحدى قريباتي وزوجها في شمالي إيطاليا، وكان والدي يرغب بابعادي عن المنزل الريفي الذي كنت أضيِّع فيه وقتي، فطلب إليهما اصطحابي.

كنت في الثامنة عشرة فرحلتُ يحدوني فرح الطفل الذي سيرى أجملَ مناظر الدنيا وأروعَ آثارها تحت سماءٍ دافئةٍ حلوة، متحرّراً في سن يبدو فيها كل شيء جميلاً: الحوادث التي لا بد أن تتخلّل الرحلة، والعالم الجديد الذي سينفتح أمامي بلغته ووجوهه وعاداته. لذا عشتُ أيام الانتظار الطويلة التي سبقتِ الرحيل، غارقاً بالفرح الذي لم يفارقني بعد ولازمني حتى العودة. اضطرّتْ قريبتي للبقاء في

ليفورن بسبب أعمالها، فتحدث زوجها عن إعادتي
إلى فرنسا دون أن أرى روما أو نابولي.

وكان ذلك يعني انتزاع أُمنيتي مني في اللحظة
التي اعتقدتُ فيها أنني قد فزتُ بها. فرفضتُ ضمنياً
تلك المصيبة وكتبتُ إلى والدي أطلب إليه أن يسمحَ
لي بمتابعة رحلتي في إيطاليا لوحدي، ولما كنتُ متأكداً
من رفضه فقد قررتُ السفر قبل أن أتلقّى ردَّه وقلتُ
لنفسي:

- إذا وصل الرفض فسيصلُ متأخراً فيُقال أنني
قد أسأتُ التصرّف، عندئذ أعتذرُ فتُغفرُ لي فِعْلتي
وأعود فوراً بعد أن أكون قد شاهدتُ ما أودّ رؤيته.

كان المالُ الذي لديّ قليلاً، لكن إحدى
قريبات والدتي تسكنُ في نابولي ولن ترفض مدّي بما
يكفل عودتي إلى فرنسا. وهكذا سافرتُ في إحدى
الليالي الجميلة من ليفورن إلى روما.

أثار وجهي وشبابي وانشغالي بكل ما أراه
اهتمام أحدِ المسافرين الذي صعِدَ معي إلى العربة،
وهو شابٌ في مثل سني تقريباً، يبدو كابن أو ابن أخ
داود، أحد أفضل مغنيي إيطاليا، والمسافر إلى نابولي.

عاملني داود مُعاملة الأب، وصديقه الشاب
كأخٍ كبير. ولم نكد نبلغ روما حتى كنا، أنا والمسافر
الجميل، لا نطيق الافتراق عن بعضنا. في ذلك
الوقت كانتِ الرحلةُ من ليفورن إلى روما لا تستغرقُ
أقلّ من أربعة أيام. وفي الفنادق كان صديقي الجديد
يطلب لي ما أريده بالايطالية، ويبدأ بتقديم الطعام لي
على المائدة، أما في العربة فقد كان يحجزُ لي أفضل
مكانٍ إلى جانبه، وإذا غلبني النوم، فقد كنتُ متأكداً
أن رأسي سيرتاحُ على كتفه.

وعند صعودِ التلال كنت أنزلُ من العربة فينزلُ
معي ويشرح لي ما أشاهدُه؛ فيذكرُ لي أسماءَ المدن
ويدلني على الآثار؛ وطول الطريق كان يقطفُ الأزهار

الجميلة ويشتري الفواكة اللذيذة، فيملأُ بها يدي وقبعتي، تحت سمعِ وبصرِ داود الذي كان مرتاحاً لرعاية رفيقه لي. وفي بعض الأحيان كانا يتبادلان الابتسام، وهما ينظران إليّ برقّةٍ وطيبة.

وصلنا روما ليلاً فكان من الطبيعي أن أنزلَ في نفس النزْل الذي حلاّ به، وفي اليوم التالي أيقظني صديقي وهو يقرعُ بابي ويناديني لتناول الأفطار، فأسرعت بارتداءِ ثيابي ونزلتُ إلى قاعة المسافرين. هممتُ بمصافحة رفيق سفري وبحثتُ عنه بعيني فأخذ الجميعُ يضحكون، وبدلاً من أن أرى ابنَ أو ابنَ اخ داود، رأيتُ مكان رفيقي فتاةً جميلة، حسنةَ الهندام، وقد عقدتْ شعرها الأسود حول جبهتها وربطتْهُ من الخلف بدبوسين ذهبيينْ طويلين كما تفعلُ فلاّحات تيفولي. إنه صديقي الذي عاد إلى ملابسه النسائية بعد بلوغه روما.

كان عليّ أن أكتشف من حلاوة نظرته وعذوبة

ابتسامته أنّه امرأة، لكني لم أشك بشيءٍ من ذلك. قالت لي الرومانية الجميلة وقد احمرّتْ خجلاً: «إن الثوبَ لا يغيرُ ما في القلب؛ لكنّك بعد الأن لن تنامَ على كتفي وبدلاً من أن تتلقى الأزهار منّي فستقدّمها أنت لي».

كانت الفتاةُ مغنية، وهي تلميذة داود المفضلة، يصطحبها في كل مكان ويُلبسها ملابس الرجال في السفر كيلا يُثير لغطاً حولها. وكان يتصرفُ معها كأبٍ أكثر منه ربّ عمل، وقد سُرّ لاهتمامها بي.

أمضى داود وتلميذتُه بضعة أسابيع في روما. وغداة وصولنا عادتْ إلى زيّ الرجال وقادتني أولاً إلى كنيسة القديس بطرس ثم إلى الكوليزيه وفراسكاتي وتيفولي وألبانو، فكانت تقول لي بكلماتٍ قليلة ما تعرفهُ عن الآثار القديمة ثم تصمتُ وتتركني أحلم.

لم تكن كاميللا عالمة، لكنها وهي المولودة في

روما تعرفُ أروعَ مناظرِ المدينة، لذا كانت تمرّ بي دون تفكير في أفضل الأمكنة وتختار لذلك أنسب الأوقات فنقضي الصباح تحت أشجار جبل بينسيو وفي المساء نجلس في ظلال كاتدرائية القديس بطرس، أما الكوليزيه فقد كنا ندخلها في ضوء القمر ونمضي أيام الخريف الجميلة في ألبانو وفراسكاتي وسيبيل الملأى بزبد مياه التيفولي. . . كانت صديقتي مرحةً كتمثال للشباب وسط كل تلك الخرائب، فكانت ترقصُ على قبر سيسيليا متيللا وتغني لي أنا الجالس على أحد الحجارة بين جدران قصر ديو كليسيان الحزينة.

في المساء، كنا نعود إلى المدينة وعربتنا ملأى بالزهور وبقطع التماثيل، فنلتقي بداود الذي كانت أعمالهُ تجبره على البقاء في روما، ونُنهي اليوم في مسرحه. . .

كانت المغنية أكبر مني ببضع سنوات ولم تكن

تُظهر لي من العاطفة سوى صداقة حانية ورقيقة، ولم أكن قد اعتدتُ عشرة النساء كي أتجرأ وأُظهر لها عاطفةً مختلفة لا أشعرُ بها لحداثة سني، كانت ملابسُها ونبرةُ صوتها وتصرفاتها الرجولية تدفعني لأن أرى فيها فتىً جميلاً هو مني بمنزلة الرفيق الصديق.

●●●

بعد رحيل كاميللا بقيتُ وحيداً في روما مع الآثار والقصور التي صحبتني إليها، وكان الرسّامُ العجوزُ الذي سكنتُ عنده قرب ساحة اسبانيا لا يُغادر منزله إلا يوم الأحد للذّهاب إلى الكنيسة مع زوجته وابنته البالغة من العمر ستّ عشرة سنة. وكان الجميع لا يتوقّفون عن العمل إلا لتناول وجباتٍ هزيلة أو للصلاة.

وفي المساء عندما كانتِ الشمسُ تلمعُ للمرة الأخيرة عند شبابيك غرفة الرسام المسكين العالية، ومع رنين أجراس الكنائس المجاورة، كانت العائلة

تستريح فتنشد صلواتٍ تخفتُ أخيراً كما يخفتُ صوتُ البحر عندما تسكن الريحُ في الليل.

أحببتُ هذا المشهدَ المسائي يُنهي يوم عملٍ بغناء ينطلق من أعماق تلك النفوس الثلاثة إلى السماء كي تستريحَ من عناء النهار، فكنتُ أتذكرُ دارَ والدي حيث كانت والدتي تجمعنا على هذه الصورة في المساء كي نُصلّي تارةً في غرفتها وطوراً في حديقة ميللي الصغيرة التي تُضيئها شمسُ المغيب. وهكذا فإن عثوري على نفس العادات كان يجعلني أشعرُ وكأنني في داري مع تلك الأسرة الغريبة.

كان للرسام أخٌ يُدرِّسُ الايطالية للأثرياء الاجانب الذين يقضون الشتاء في روما، وكان لا يزال شاباً وجميلاً كالرومان القدامى، وقد ناضل من أجل حريّة بلده وخاطب الشعب من أعلى الكابيتول فأعتُقلَ ثم شغلَ أحد أهمّ المناصب في الجمهورية

وأنقذتهُ جيوشُ ملك نابولي الفرنسية، لذا كان يُحب فرنسا الحريّة بقوة، وكنتُ أكنّ نفس العواطف لايطاليا، فأدرك ذلك عندما سمعني أتلو قصائد مونتي أو الفياري، وتحدّث إليّ فاصبحتُ صديقَهُ أكثر مني تلميذه.

إنّ الحريّة هي حلمُ الشباب الأول، لا تموت في نفوسنا إلا عندما يشيخُ قلبُنا ونفقدُ الشجاعة، فليستْ هناك نفسٌ شابّة إلاّ وهي جمهورية النّزعة، وليس هناك قلبٌ بالٍ إلاّ وهو مستعدٌ لخدمةِ الأسياد.

كنّا نذهب غالباً أنا وصديقي فنجلسُ على تلة فيللا بامفيلي، ومن هناك يرى المرءُ روما بقصورها وكنائسها وآثارها المهدمة. . ووسط كل تلك الروائع ينسابُ نهرُ التيبر وسخاً صامتاً كالشعب السائر في الشوارع، وكم من المرات بكينا الحرية التي كان يبدو وكأنّها لم تولد في فرنسا وإيطاليا إلا لتموتَ بسرعة.

كنتُ أدرسُ روما وتاريخها وآثارها فأخرجُ صباحاً وحدي كيلا تُزعجني حركةُ المدينةِ حاملاً كتبَ المؤرخين والشعراء وكلَّ مَنْ كتبوا عن المدينة، ثم أجلسُ أو أتنزه على أسوار الفوروم أو الكوليزيه أو في الريف الروماني، متأملا أو قارئاً مفكراً، كنتُ أقوم بدارسةٍ جادّةٍ وحيّةٍ للمدينة فأهيمُ على وجهي مُتنقلاً من روما القديمة إلى روما الحديثة، ومن البانتيون إلى قصر ليون العاشر، ومن منزل خوراس إلى دار رافائيل، وهكذا يمرّ أمامي الشعراء والرسّامون والمؤرخون والعظماء دون أن استوقف إلاّ مَنْ يُثيرون اهتمامي في ذلك اليوم.

وحوالي الساعة الحادية عشرة كنتُ أعودُ إلى غرفتي في دار الرسّام لتناول الأفطار فآكل - وأنا أقرأ على مكتبتي - قطعةً من الخبز والجبن وأشربُ كوباً من الحليب ثم أعملُ وأكتبُ حتى تحين ساعة الغداء، وكانتْ زوجةُ الرسّام وابنته تُحضّرانه لنا. وبعد الأكل

أخرجُ ثانية فلا أعود قبل هبوط الليل، ونتحدث حتى ساعةٍ متأخرة. لم أكن أشعرُ بالحاجة لرؤية أناسٍ آخرين فقد كنتُ سعيداً لشعوري بالوحدة، تكفيني روما ونفسي، وهكذا قضيتُ شتاءً طويلاً بأكمله منذ تشرين الأول حتى نيسان، نعمتُ فيه بالسعادة.

والآن عندما أبحثُ عن كل ما شعرتُ به في روما، تمحو ذكرتان كلّ ما عداهما: الكوليزيه والقديس بطرس.

فالاول هو ذكرى شعب عظيم شيّد لملذّاته أبنيةً ضخمةً متينةً مثله. وسيبقى نهرُ التيبر يجري عبر روما طالما بقيتْ أسوار الكوليزيه قائمة، أما كنيسة القديس بطرس فهي من عمل عالمٍ في إحدى لحظات تاريخه، إنّها ليست بناءً أُقيم لاستقبال شعبٍ يبحث عن اللذة، بل من أجل الذين يصلون وهم على استعدادٍ لتقديم أفضل ما عندهم. لقد رُفعتْ أسوارُها تمجيداً

لعظمة الله وأدخلَ فيها ميكال انجيلو الجمال بنفس القدر الذي أُدخل فيه النور.

أخيراً، وبعد أن استنفذتُ كلّ ما يمكن أن تعطيه روما من لذّة راودتني الرغبة برؤية قبر فيرجيل ومنزل تاسي في نابولي، إذ كان يُخلّ إليّ أنّ هذين الشاعرين كانا على قيد الحياة بالأمس القريب وأنّ جثتيهما لا تزالان دافئتين تحت صخور بوزيليب وسورانت.

انطلقت إلى نابولي في أواخر آذار فبلغتُها في أول نيسان. وبعد بضعة أيام أتى شابٌ في مثل عمري كي يلقاني فيها وكنّا نحبّ بعضنا كالاخوة منذ أيام الدراسة: إنه إيمون دي فيريو الذي امتزجت حياتي

في نابولي عشتُ تقريباً كما عشتُ في روما عند الرسّام العجوز الساكن في ساحة اسبانيا، إلاّ أنني بدلاً من تمضية وقتي بين خرائب الأزمنة الغابرة، كنتُ أمضيه على ضفاف الخليج، وفي المساء كنتُ أعودُ إلى المنزل القديم الذي وجد فيه قريبٌ لوالدتي غرفةً صغيرةً تحت السطوح، يطلّ شبّاكها على البحر والفيزوف و كاستيللامار وسورانت. وفي الصباح عندما يكون الطقس صافياً كنتُ أرى منزل تاس الأبيض يلمعُ فوق إحدى الصخور الصفراء على شاطىء البحر فينفذُ هذا النورُ حتى أعماق قلبي وأتذكّر مشهداً من حياة ذلك الرجّل العظيم، كان خارجاً من السجن والبعضُ يُظهرون له الحسد والبعضُ الآخر ينسبون إليه أشياءً كاذبةً وضيعة.

لم يستطع العجوزُ الكلامَ فأشار إلينا أنْ نُلقي كلّ ما في المركب إلى البحر بما فيها أباريق الماء وسلال السّمك والأشرعة والمرساة والحبال والملابس والأكياس. ونظر هنيهة إلى كلّ ثروته وهي تغرق. خفّ وزنُ المركب فجرى بخفةٍ كجوادٍ أُنزل عنه حملُهُ.

وشيئاً فشيئاً دخلنا بحراً أكثر هدوءاً وراء جزيرة بروسيدا فخفّتِ الريحُ واستقامتْ لهبةُ المشعل ونفذ القمرُ من ثغرةٍ بيضاء بين الغيوم. عندئذٍ كنا قد بلغْنا مياه مُنتصف الجزيرة.

•••

كان البحرُ لا يزالُ هائجاً إلى حدٍّ لا يسمحُ لنا بمحاولة الدّخول إلى الميناء، فكان علينا الرسوّ بين الصخور. قال لنا الصيّاد:

ـ «لا تخشوا شيئاً بعد الآن، فقد أنقذنا الله،

وسننامُ هذه الليلة في داري».

ظننا أنه قد فقد صوابه إذ لم نكن نعرفُ داراً غير القبو المظلم في المارجيللينا، وللعودة إليه قبل الصباح كان علينا الإرتماء مجدداً في القناة ثم في البحر الذي يتربّصُ بنا الدوائر، إلاّ أنّ العجوزَ كان يبتسم لدهشتنا ويقرأ أفكارنا من أعيننا، وقد قال لنا: «إطمئنا أيها الشابان فسنصلُ إليه دون أنْ تبلّلنا موجةٌ واحدة». ثم اخبرنا أنه من بروسيدا حيث احتفظ بدار والده الصغيرة وبحديقتها، وإن زوجته المسنة وحفيدته التي هي أخت بابينو، حامل المشعل، تسكنان الآن في هذه الدّار، وكذلك هناك ولدان صغيران يُساعدان على جمع العنب وبيعه في نابولي.

ثم أردف يقول: «لم يبق علينا سوى بضع ضرباتٍ من المجاذيف قبل أن نشربَ ماءَ نبعٍ أفضل من خمر إيطاليا».

أعادتْ إلينا هذه الكلمات شجاعتنا. ومن

وقتٍ لآخر كان الولد يرفعُ مشعله ويحرّكه، مُلقياً ضوءاً دامياً يظهرُ في كل مكان جداراً صخرياً. أخيراً، وبعد أن جذّفنا مسافة أربعة كيلومترات على طول الجزيرة، ظهر لنا بين الصخور ما يُشبه التجويف، فانعطف القارب يمنة واحتكّ خشبُهُ بالحجارة تحت الماء.

قفزنا إلى المياه السوداء، ولمّا لم يعد لدينا مرساة فقد ربطْنا القارب إلى الصخور وتبعنا العجوز والصبي اللذين صعدا أمامنا.

كان السلّمُ المحفور في الصخر مُغطى برذاذ البحر. وفي بعض الأمكنة كانت تنقصهُ درجات، فمررنا على قطعٍ خشبيةٍ غُرست في الحجر أو على ألواحٍ خشبيةٍ انتزعت من مراكب قديمة.

بعد أن صعدنا ببطء أربع مئة أو خمس مئة درجة وجدنا أنفسنا في فسحةٍ صغيرةٍ مُحاطةٍ بحجارةٍ

رمادية، تنتهي بصخورٍ وسورٍ يعلوها سقف. أمام الباب تدلّتْ ثمارُ تلمع، وأخفتْ شجرةُ تين وكرمة نافذتين مغلقتين. بعد صعودنا الطويل والسريع كنا تعبين أنا والصياد من ثقل المجاذيف التي حملناها على اكتافنا، فتوقفنا لحظةً نلتقط أنفاسنا، أما الولدُ فقد صعد السلم بسرعةٍ وأخذ يدقّ على إحدى النوافذ بمشعله الذي لا يزال مضيئاً ويصيح: «يا امي.. يا اختي، يا جاتيانا.. يا غرازييلا، استيقظن وافتحن لي وللوالد... معنا غرباء».

سمعنا صوتاً نصف نائم لكنه واضح وعذب يأتي من آخر المنزل، ثم فُتحت إحدى النوافذ نصف فتحة مدفوعة بذراعٍ عارٍ أبيض يخرجُ من كمّ عريض، ورأينا على ضوء المشعل وجه فتاةٍ جميلة.

أيقظ غرازييلا صوتُ أخيها فلم تفكّر ولم يتسع لها الوقت لإرتداء ثيابها بل اندفعت نحو النافذة

بقميص النوم، ونصف شعرها يتهدّل على أحد خدّيها بينما التوى النصف الآخر وراء رقبتها، يتلاعب به الهواء فيرتطمُ بوجهها كجناح الغراب. وكانت الفتاةُ تفركُ عينيها بكلتيْ يديْها رافعة ذراعيها كطفلٍ استيقظ فأراد طرد النّعاس. ومن قميصها كانت تتراءى لنا قامةٌ هيفاء تحت صدر فتي وعينين لامعتين!

كانت تتحدث إلى أخيها الصغير بكلماتٍ لها وقعُ الموسيقى في أُذني، ثم علتْ وجهها مسحةٌ من الحزن تلاها شيء من المرح والحنو والضحك، بينما نحن ننتظر وراء التينة الضخمة. أخيراً رأتنا فتراجعت خطوتينْ إلى الوراء وأيقظتْ جدّتها ثم ارتدت نصف ملابسها وفتحت لنا الباب مُقبّلة جدّها فأخاها.

بعد قليل ظهرت المرأةُ العجوزُ تحمل في يدها مصباحاً من الطين الأحمر يُضيء وجهها الهزيل وشعَرها الأبيض - كصوف غنمها الذي غسلتْهُ قبل

بضعة أيام ونشرته على الطاولة - قبّلتْ يدَ زوجها وجبين الولد بينما وقفنا نحن قرب الباب كيلا نُزعجهم.

من وقتٍ لآخر كانت غرازييلا ترمينا بنظرة تعّجب وكأنها صادرةٌ من أعماق حلم. وعندما انتهى الأب من سرد قصته خرّتِ الأمّ العجوز ساجدةً على ركبتيْها وخرجت غرازييلا فأحضرت بعض أغصان الليمون المغطاة بالزهر. ثم أخذت كرسياً وربطت الأغصان بدبابيس سحبتها من شعرها أمام تمثالٍ صغيرٍ للعذراء يعلو الباب ويضيئه مصباح، فأدركنا أنها تشكر الله لانقاذه جدّها وأخيها.

كان داخل المنزل شبيهاً بالصخر، وقد بنى السنونو في زوايا سقفه أعشاشاً له تخرجُ منها رؤوسٌ صغيرةٌ سوداء ذات عيون برّاقة. أما فراشُ الأولاد فكان عبارةً عن أكوام من الخنشار. وفي الغرفة الثانية كانتْ غرازييلا وجدّتها ترقدان على فراشٍ صُنع من

فطع الأشرعة. وعلى الأرض كان هناك سلالٌ من الثمار.

التفت الصيادُ إلينا ودلنا بحركةٍ من ذراعه ويده على بيته الفقير ثم قادنا إلى «السطحية» حيث ساعده الولد والفتاة على مدّ قطعة قماش فوق المجاذيف أقام تحتها سريراً من الخنشار، ثم أعطانا قطعتيْ خبز وبعض الماء البارد ونصحنا بالنوم.

كنا تعبين فغرقنا فوراً في سبات عميق. وعندما استيقظنا كان السنونو يطير حولنا مُحاولاً التقاط بقايا عشائنا. أما الشمس فكانت عالية في السماء تُدفىء قماش سقفنا.

بقينا وقتاً طويلاً مُضطجعين فوق فراشنا العشبي في حالة نصف الصحو التي تسمح للانسان بالشعور والتفكير قبل أن تُواتيه الشجاعة للنهوض وبدء يوم جديد، فكنّا نتبادل بعض الكلمات ثم

نخلدُ إلى الصمت ونعود إلى تأملاتنا فتمرّ أمام أعيننا صورُ صيد الأمس، والقاربُ تحت أقدامنا والبحرُ والصخور ووجهُ غرازييلا تحت ضوء المشعل.

أخرجتنا الجدّةُ العجوز من تأملاتنا عندما بلغنا صوتُها وبعضُ كلماتها التي كانت تُحدّث بها زوجها عن الأباريق والحبال والأشرعة التي ألقاها إلى البحر كي يُنقذ حياتنا.

قالت له:

ـ ما الذي فعلتهُ بأخذك هذين الغريبين الفرنسيّين معك!؟... ألم تكن تعرفُ أنهما رجلان لا ربَّ لهما وأنهما يحملان المصيبةَ معهما؟!... لقد عاقبك الله وضاعتْ كلُّ ثروتنا!!...

لم يدر الرجلُ المسكين بِمَ يجيب، لكن غرازييلا التي كانت جدّتها تغفرُ لها كلَّ شيء انبرتْ تُدافعُ عن جدّها قائلة:

ـ من ذا الذي قال لكِ إن هذينْ الغريبين لا ربَّ لهما؟ . . . وهل يبدو على الكفّار أنهم يحبّون الفقراء مثلهم؟ . . وهل يُصلّون مثلنا؟ . . . حسناً إني أقولُ لكِ إنهّ عندما سجدتِ البارحة كي تشكري الله، وعندما أعطيتِ الزّهورَ للعذراء، رأيتُهما يُحنيان رأسيهما كما لو كانا يُصليان وقد رسم أصغرُهما إشارة الصليب مرّتين.

بعد هذا القول، شعرنا أنّ لنا في الدار صديقة قويّة، سيّما وأن الجدة لم تُجب . . .

●●●

نزلنا؛ نشكر الأسرةِ الفقيرة فوجدْنا الصياد والأم العجوز وبيبو وغرازييلا وحتى الصغار يستعدون للنزول إلى الشاطىء كي يتفقدوا القارب الذي تركناه بالأمس. كان البحرُ لا يزال هائجاً وكنا نسمعهُ يرتطمُ بالصخور بقسوة. . تبعناهم خافضي الرأس كما لو كنا

قد حملنا الشقاء إلى تلك الأسرة التي لم نكن واثقين من مشاعرها نحونا.

سار الصيادُ وزوجتهُ في المقدمة، تليهما غرازييلا وهي تُمسك يدَ أحد أخويها الصغيرين وتحمل الآخر على ذراعها. أما نحن فكنا نسيرُ في المؤخرة بصمت، وعند وصولنا إلى أحد منعطفات السلم سمعنا صيحة ذعر صادرة عن الصياد وزوجته، ورأيناهما يلويان يديهما ويلطمان جبهتيهما وعينيهما كمن فقد كلّ رجاء. وبعد قليلٍ امتزجت أصواتُ غرازييلا والصغيرين بصيحاتهما. ركض الجميعُ إلى خطّ الزبد الأبيض الذي كانت الأمواجُ العالية لا تزال تقذفُه حتى الصخور وركعوا على ركبهم فأخفت العجوزُ وجهَها بين يديها وأراحتْ رأسها على الرمل الرطب. .

كنا ننظرُ إلى ذلك المشهد دون أن نقوى على التقدّم. لم يكن للمركب مرساة فحملته الأمواجُ ليلاً وحطّمته على الصخور حيث بقيتْ مقدمتُه فقط على

الصخرة التي ربطناه إليها بالأمس. أمّا بقيةُ الأشلاء فتبعثرتْ على الرمال. جرى الصيادُ العجوز بين تلك البقايا يلتقطُها ويتأمّلُها بعين جافة، ثم يرميها ويبتعد. أمّا غرازييلا فجلستْ على الأرض وقد أخفتْ رأسها في «تنورتها». . . وكان الاولادُ الصّغار يجرون في البحر وراء الألواح الخشبية وهم يصيحون ويُحاولون استعادتها. صاحت العجوزُ شاكية: «أيّها البحرُ الأصم، العديم القلب!» ثم ضمّتْ قبْضتها وقالتْ: «لِمَ لَمْ تأخذنا نحن جميعاً؟. . . أنت يا مَنْ أخذتَ أداةَ عيشنا؟».

قالت هذه الكلمات وهي تنتزعُ شعرَها وتُلقيه في البحر ضاربةً الأمواج برجلها ويدها. . ثم انتقلتْ من الغضب إلى الشكوى فجلستْ مُجدّداً على الرمل وأسندت جبْهتها إلى يديْها مُتألمةً وهي تبكي ألواحَ الخشب التي كانت ترتطم بالصخور. قالتْ تُخاطبُ القارب كما تُخاطب شخصاً عزيزاً:

- «أيّها القاربُ المسكين، ألمْ يكن ينبغي أن نموتَ معك كما عشنا؟. . لِمَ لمْ ننزل هذه الليلة فوراً بدلاً من تركك ترتطمُ بالصخور طوال الليل؟. . لقد خدمتنا بإخلاص فتركناك لوحدك وفقدناك هناك قرب دار سيدك! . . .

كانتْ تنتحبُ ثم تعودُ إلى الحديث عن قاربها، ذلك القارب الطيب الجميل، وعن كلّ النقود التي كلّفها أو تسبّب بكسبها فتتزاحمُ الذكريات على لسانها:

- «ألهذا نظّفناك وأصلحناك ودهنّاك بعد الصيد الكبير؟ ألهذا صنعك ابني المسكين بمزيدٍ من العناية والحب قبل أن يموتَ ويتركَ لي أولادَهُ الأربعة؟. . . عندما كنتُ آتي لأخذ سلال السمك كنتُ أتعرفُ على ضربات فأسه وأقبّله. يا إلهي! ما الذي فعلته بابني وبزوجته وبالقارب الذي خلّفه لنا لكسب عيش أولاده المساكين! . . .

عندئذ صاح أحدُ الأولاد وهو يلتقط قطعة خشب من بين صخرتين: «أمّاه! أمّاه! هاك القديس الذي صنعه والدي».

نسيتِ المسكينةُ كلّ غضبها وجرتْ في الماء إلى الطفل فأخذت منه قطعةَ الخشب التي حفرها ابنها وألصقتها على شفتيها ثم عادت إلى الجلوس ولاذتْ بالصمت.

ساعدنا بيبو والرجل العجوز على تكديس بقايا القارب، إذ كانت هناك بعض الألواح الخشبية التي يمكن أن يستعملها أولئك المساكين. ودحرجنا فوقها بعض الحجارة الكبيرة كيلا تذهب بها الأمواج، ثم صعدنا إلى الدار حزينين يتقدّمنا أصدقاؤنا. وبعد أن أكلنا قطعة خبز خافضي الأعين صامتين، وشربنا من حليب الماعز الذي حملته إلينا غرازييلا من قرب النبع، جلسنا تحت التينة تاركين الدار غارقةً في الحزن والأسى.

سِرْنا تحت أشجار العنب عند قمة الجزيرة تُساورنا نفس الفكرة أنا وصديقي.. ودون أن نتبادل الكلام سلكنا الطّرق الضيقة باتجاه الشرق والتقينا ببعض الفتيات يحملن جرارَ الزيت على رؤوسهن، فدلَلْننا على الطريق الصحيح. أخيراً، وصلْنا إلى المدينة بعد مسير ساعة فقال صديقي:

- إنها لمصيبةٌ كبيرةٌ حلّتْ بأولئك الناس.

واتممت:

- يجب أن نحوّلها إلى فرح.

فأجاب وبعضُ القطع الذهبية ترقدُ في حزامه:

- كنتُ أفكر بذلك.

- وأنا أيضاً لكنني لا أملك سوى خمس أو ست قطعٍ في جيبي ومع ذلك فقد تسببتُ بنصف المصيبة، ويجب أن أعوّض عن نصفها...

- إنني أثرى منك الآن ولدّي هنا في نابولي كلّ

ما أريدُه من نقود، لذا سأدفعُ كلَّ شيء ثم نتحاسبُ في فرنسا.

نزلنا إلى شوارع بروسيدا ونحن نتبادلُ هذا الحديث، فوصلنا بعد قليل إلى مينائها الذي ازدحم بقوارب إيشيا وبروسيدا ونابولي الهاربة من غضب البحر. كان الصيادون نائمين تحت الشمس تُهدهدهم الأمواجُ الآخذةُ بالهدوء، وكان بعضهم يتحدث وهو جالسٌ على الرصيف.

سرنا على طول الميناء، باحثين بأعيننا عن قاربٍ متين يستطيعُ رجلان أنْ يقوداه بسهولة، ويشبه ذاك الذي فقدناه، فلم نجد صعوبةً في العثور عليه.

صاحبي فوراً. . . ولقاء هذا المبلغ أصبحت الأشرعة والجرار والحبال وكلُّ ما يحويه المركب ملكاً لنا. . . ثم ابتعنا من إحدى دكاكين المرفأ ثوبين سميكين من الصوف، أحدهما للرجل العجوز والآخر للولد، وأضفنا إلى ذلك كله عدّة شباك وسلالٍ للسمك وبعض الحلل والمكانس. ووعدنا صاحب المركب بثلاث قطع ذهبية أُخرى إذا اقتيد المركبُ في نفس اليوم إلى أسفل السلم المؤدي إلى منزل الصياد. . ولما كانت الريح آخذةً بالهدوء فقد قبلَ صاحبُ المركب وعدْنا إلى منزل أندريا سيراً على الأقدام. . .

قطعنا الطريق ببطء فكنا نجلس تحت ظل الأشجار، وفي ظلّ الكروم نتناقش مع الصبايا ...ت حول سعر التين والعنب الذي يحملنه مُفسحين

تقتربُ مني شيئاً فشيئاً .

أراحت يدها اليسرى على الأرض وأخذت تنقل عينيها الواسعتين من الكتاب إلى شفتي وما بينهما ، وكانت أنفاسُها تتسارعُ تارةً وتتباطأ تارةً أخرى كالصاعدِ إلى أعلى جبلٍ يرتاحُ من وقتٍ لأخر فيلتقطُ أنفاسه . وقبل أن أبلغَ منتصف القصة كانتْ قد أصبحت بجانبي فكنتُ أشعرُ بأنفاسها الحارة تلفحُ يدي ، وبشعرها يُلامسُ جبيني ، وسقطتْ دمعتان حارّتان من خدّيها على كتابي قرب أصابعي . . .

فيما عدا صوتي لم يكن يُسمع سوى هدير البحر النائي المرتطم بالشاطىء بعيداً تحت أقدامنا ، وكان أفضل لحنٍ مرافقٍ للقصّة . وعندما لم أكن أجدُ فوراً الكلمةَ الايطاليةِ التي تُترجمُ الكلمةَ الفرنسية ، كانتْ غرازييلا الساهرة على إبعاد المصباح عن الريح تُدنيه منّي فتكاد تحرقُ الكتاب كما لو كانتْ تظنّ أنّ الضوءَ

سيُنيرُ ويسرعُ بخلق الكلمات على شفتي . عند ذلك كنتُ أبعدُهُ بيدي وأنا أبتسم دون أن ارفعَ عيني عن الصفحة .

وصلتُ إلى اللحظة التي استُدعت فيها العمةُ فيرجيني إلى فرنسا ، فاحتارتِ الأخيرةُ بين حبّها وواجبها وتحدّثتْ عن عودتها إلى بولس دالةً على البحر الذي سيحملُها . عندئذ ، أغلقتُ الكتابَ حتى الغد . .

كان ذلك بمثابة طعنةٍ سُدّدتْ إلى قلب أولئك المساكين ، فطلبتْ إليّ غرازييلا الاستمرارَ راكعةً أمامي وأمام صديقي .

رفضنا هذا الطّلب رغبةً منا بإطالة اهتمامهم ، فانتزعت غرازييلا الكتاب من يدي وفتحتهُ كما لو كانتْ تستطيعُ فهمه ، ثم تحدّثتْ إليه وقبّلتهُ وأعادتْهُ بعناية إلى ركبتي .

كـان وجهُها الجميـل قـد تغـيرّ منـذ أن بـدأتِ القراءة التي أكسبتْهُ حياةً جديـدة . . إذ شعرتِ الفتـاةُ بـروحهـا التي كـانتْ راقـدةً حتى ذلـك الحـين تنهضُ وتـآلف مع روح فيـرجيني ! . مثلُها في ذلـك مثل مـاءٍ هادىءٍ مُخبأ، فـاجأتـهُ الشمسُ والريـحُ والظلُّ دفعـةً واحـدةً وللمـرة الأولى . . لـذا لم نكن نستـطيـع منْعَ أنفسنـا من النـظر إليهـا . وبعـد أن كنّـا نفعـلُ ذلـك للاستمتاع بمرحها، بـدأنا نتـأملها لجمـالها العميق . . لكنّنـا رفضنـا إنهاءَ قصتنـا في ليلةٍ واحـدة لسـرورنـا باستدرار دمـوعها الجميلة . عنـدئذٍ أطفأتِ المصباحَ بغضبٍ وتركتنا . .

رأيْتُهـا في الغد، فـأردتُ التحدّثَ إليهـا لكنّهـا أدارتْ رأسهـا كمن يُخفي دمـوعـه ، ورفضتْ أن تـردَّ عليّ . كان يـظهرُ من عينيهـا التّعبتـين ومن خـدّيهـا وفمهـا أنّها لم تنمْ، وأنّ قلبها لا يـزال يفيض بالألم . . ذلك أن حبّ بول وفيـرجيني لبعضهما وعـودة أحدهمـا

وموته في البحر هي أمورٌ يحسهّـا ويفهمها الجميـعُ من ساكني القصور إلى القاطنين في أكـواخ الصيادين . . . إيه أيتُها الكتب ! . . أنتِ التي تستطيعين تحريك أفئدة الرّجال والنساء، حتى الذين لا يعرفون القراءة!

لفّ الحـزنُ الدّار طـول النّهار فتنـاولنا الـطعام بصمت واجتمعنا والابتسامـاتُ غائبـةٌ عن اجتماعنـا . كان واضحاً أن غرازييلا غير مهتمة بعملها في الحديقة أو عـلى السطح ، فقـد كانتْ تنـظر غالبـاً لترى مـا إذا كـانتِ الشمسُ تميل للمغيب، ومن الجلـيّ أنّها لم تكن تنتظرُ سوى المساء .

أتى المسـاء فاتّخـذنا جميعـاً مجلسنا عـلى السـطح وفتحتُ الكتـابَ ثانيـة وكنّا جميعـاً في غـايـة التـأثـر . وعندما انتهيتُ من القراءة تعذّر علينـا الكلام . بقيتْ غرازييلا جامدةً وكـأنها لا تزال تصغي . . . ولم يُعكّـر السكونَ أحد، إذ كان كلّ واحدٍ يشعرُ أنّ الأخرَ يُفكر مثلَه . وانـطفـأ القنـديـلُ ببطءٍ دون أن يُحـاولَ أحـدٌ

إشعالـه، فنهضت الأسرةُ إلى النـوم دون أن تقـولَ شيئاً . . . فبقينا أنا وصديقي وحدنا مُتعجّبين من تأثير الحقيقة والبساطة والعاطفة على الناس من كل الأعمار والبلدان.

ربّما كان هنـاك تأثـّرٌ آخر يُحـرّكُ أعماقَ قلوبنـا!

أُضيفت صورةُ غرازييـلا الباكية إلى صورة فيرجيني، فكان هذان الاسمان وهاتان الفتاتان موضوع أحلامنا حتى الصباح. وفي مساء ذلك اليوم واليومين التّالين، اضطررنا لإعـادة قراءة الكتـاب نفسه مـرّتين للفتـاة، وكـان يمكن أن نفعـل ذلـك مئة مـرّة دون أن تملّ سماعه، فسكان الجنوب بـطبيعتهم العميقة الحـارة لا يبحثون عن التغيير في الشِّعر وفي الموسيقى،بل يصغون ويستعيـدون القصّـةَ نفسهـا واللحن ذاتـه لمئـاتٍ من السنـين دونمـا تعبٍ أو مللٍ. والـطبيعـة التي هي في الـواقع شعـرٌ وموسيقى ليس لـديْها مـا تُعطيـه سـوى أصواتٍ وسطورٍ قليلة لا تتغيّر. . .

عنـد شروق الشمس في اليـوم التاسـع سكنتِ الريحُ، وبعد ساعـاتٍ قليلة عاد البحـر فأصبـح بحر صيف. كانت الجبالُ خلف نابولي، وكـذلك البحـر، تبدو سابحـةً في سماء أكـثر زرقةً ممـا هي عليه في أشـد الشهور قيظاً. بـدأتْ أوراقُ الكرمـة الصفراء وأوراقُ شجر التين السمراء تتساقط وتغطي الأرض.

أمّا التين المجفّف على السطح فقد وُضع بعنـايةٍ في سـلالٍ من العشب أعدّتهـا النسوة. كـان القـاربُ يتعجل تجربـة البحر، والصيـاد العجوز يتـوق لإعادة عائلته إلى المارجيللينا. نُـظّف المنزلُ والسّـطحُ وغُطي النّبـعُ بحجرٍ كيـلا تسقط فيـه الأوراقُ الجـافّـة ومياهُ الشتـاء. ثم اخـذتْ جـرارُ الـزيت من البئـر الصغيرة المحفورة في الصخر وأُنزلت إلى البحر. ولُفّت أغـطيةُ السرير مع الفراش. وللمـرة الأخيرة أضيءَ المصباحُ وأقيمتِ الصلاةُ للعذراء التي عُهد إليها بالدار وشجرة التين والكرمة التي ستُترك لعدة أشهر. بعد ذلك أُغلق

الباب وخُبّىء المفتاح في فَجْوَةٍ بين الصخور تحت الأعشاب كي يعرف الصياد أين يجدهُ فيما لو عاد في الشتاء فيتمكنُ من دخول البيت. ثم نـزْلنا إلى البحر نُساعدُ في حمل الزيت والخبز والثمار إلى القارب.

الفصل الثالث

كانتْ عوْدتنا إلى نابولي عن طريق بايا وصخور بوزيليب عيداً حقيقياً بالنسبة للفتاة والأولاد ولنا، كما كانت فرحة عميقة بالنسبة لاندريا. وصلنا إلى المارجيللينا بعد هبوط الظلام ونحن نُغني، فجاء صديقا الصياد وجيرانه لرؤية القارب الجديد وقالوا له إنه جميل، ثم ساعدوا في تفريغه وسحبه إلى اليابسة. ولما كنّا قد حظّرنا عليه أن يقولَ لمن هو مدينٌ به، لم يلتفتْ أحدٌ إلينا. وبعد أنْ حمْلنا سلاَل التين والعنب إلى القبو تركناهم بصمتٍ كي نعود إلى نزْلنا فلم يشعر أحدٌ بانصرافنا.

كنّا نفكر بأخذ بضعة أيامٍ من الراحة نعودُ

بعدها إلى استئناف حياتنا مع الصياد كلما سمحتْ حالة البحر بذلك. لكنّنا عندما ذهبنا في اليوم التالي إلى البريد لاستلام رسائلنا، وجدَ صديقي رسالةً قديمةً من والدته تُعلمه فيها بقرب زواج أخته وبأن صهرَه سيأتي إلى روما لمرافقته، ومن المفترض أن يكون قد وصلها. لذا، لم يكن هناك مجالٌ للنقاش وكان عليه أن يرحل.

كان يجبُ أن أرحلَ معه لكنّي لا أعلمُ ما الذي منعني من ذلك. ربّما كان للحياة فوق الماء ولدار الصياد وصورة غرازييلا بعض التأثير، لكني كنتُ قبل كلّ شيء بحاجةٍ إلى الحريّة... وإلى العيش على بُعد أكثر من ألف كيلومتر من بلدي دون أن أطلب شيئاً من أحد. افترقنا بحزن فوعدني أن يأتي للقائي بعد زواج أخته وأقرضني خمسين قطعةً ذهبيةً، كي أتمكن من العيش ستة أشهر أخرى، ثم... رحل.

●●●

تركني رحيلُ ذلك الصديق - أو بالأحرى ذلك الأخُ الأكبر - وحيداً، فلم يعُد لديّ مَنْ أتحدّثُ إليه وبقيتْ كلّ أفكاري وعواطفي مكتومةً في نفسي كحملٍ ثقيلٍ أعجزُ عن رفْعه.

عند الغداء أو العشاء كنتُ أجلسُ قرب أناسٍ دائمي التغيّر والانشغال. كانتِ الكتبُ التي أعدتُ قراءتها مئة مرّة تُقدم إليّ نفسَ الكلمات،فلم أعدْ أحبّ شيئاً ممّا أحببتُه في روما وفي نابولي قبل الصيف.

تحوّلتُ بضعة أيام مع حزني من شارعٍ إلى شارع، ومن مسرح إلى مسرح، ومن كتابٍ إلى كتاب، ثم غلبتني الكآبةُ فأُصبتُ بما يُسمى مرض الحنين إلى الوطن. كان رأسي ثقيلاً وساقاي لا تقويان على حملي، فتوقّفتُ عن الأكل.. كان الصمتُ يُحزنني والضجيجُ يؤلمني، فقضيتُ الليالي أرقاً والأيام على فراشي دون أن تكون لديّ الرغبة أو حتى القوة

للنهوض، كان قريبُ والدتي العجوز وهو الشخصُ الوحيد الذي يمكنه أن يهتمَّ بي قد ذهب لقضاء بضعة شهور على بُعد مئة وعشرين كيلومتراً جنوبي نابولي. طلبتُ طبيباً فأتى ونظر إليّ وسمع ضربات قلبي فقال لي إنّي لستُ مريضاً.. . أما الحقيقة فهي أنّني كنتُ مُصاباً بمرضٍ لا تُجدي معه الأدوية، وذهب ولم أره ثانية.

ومع ذلك فقد شعرتُ في اليوم التالي أن حالتي قد ساءتْ لدرجةٍ بحثتُ معها عمنّ يمكنُ أن أتوقّع منه المساعدة فمّرتْ بفكري صورة أُسرة الصياد المسكينة.. عندها، أرسلتُ ولداً يقومُ بخدمتي كي يبحثَ عن أندريا ويقول له إنّ أصغرَ الغريبين مريضٌ ويطلبُ رؤيته.

وعندما وصلَ الولدُ إلى ذلك المنزل كان أندريا في البحر مع بيبينو والجدّة التي كانت مشغولة ببيع

السمك على أرصفة شياجا ولم يكن في الدار سوى غرازييلا وإخوتها، فأسرعتْ تطلب الولد الذي قادها إليّ.

سمعتُ طرقاتٍ خفيفةً على باب غرفتي الذي فُتحَ فرأيتُ غرازييلا التي صاحتْ عندما رأتني وتقدّمت بضع خطوات من سريري ثم بذلتْ جهداً كي تتوقف ويداها تتدلّيان فوق ثوبها ورأسها مائلٌ فوق كتفها الأيسر، فقالتْ بصوتٍ مُنخفض وكأنها تُحدثُ نفسها:

ـ كم هو شاحبٌ هذا الوجه! كيف أمكن أن يتغيّر إلى هذا الحد في هذه الأيام القليلة؟!

ثم التفتت باحثةً بعينيْها عن رفيقي وسألتْ: «أين هو الآخر؟».

ـ لقد رحل.. فأنا الآن وحيدٌ في نابولي.

ـ رحلَ وتركَكَ وحيداً ومريضاً؟ ألم يكن يُحبّك

إذن؟ آه! لو كنتُ مكانه لما رحلت، رغم أنني لستُ «أخاك» ولا أعرفكَ إلاّ منذ يوم العاصفة.

عندئذ شرحتُ لها أنني لم أكن مريضاً عندما فارقني صديقي. فقالت بلهجة يختلطُ فيها الغضبُ بالحنان:

ـ لكن كيف لم يخطر ببالك أنّ لك أصدقاء آخرون في المارجيللينا؟

ثم أضافت بحزنٍ وهي تنظر إلى ثوبها:

ـ آه! لقد فهمت. إنّنا أُناسٌ فقراء تخشى أن يرانا النّاسُ عندك. لكنْ.. صدّقني لقد كنّا سنأتي حتى ولو نظر إلينا الناسُ نظرةً مُتعالية.

أجبتها ضاحكاً:

ـ مسكينةٌ أنتِ يا غرازييلا! سوف احبُّ دائماً من يُحبونني.

جلستْ على كرسيٍّ قرب سريري، فتحدّثْنا

قليلاً وقد أثّرتْ فيّ نبرةُ صوتها الفتي وعيناها الهادئتان ووجهها النّضر وذكرى الأيام الحلوة التي قضيناها تحت أشعة الشمس معاً، شمسُ بروسيدا التي يُخيّلُ إليّ أنّها لا تزالُ تسيلُ من جبهتها وجسمها وقدميها في غرفتي الكئيبة. كلّ ذلك جعلني أعتقدُ أنّني قد شفيت بينما كنتُ أنظرُ وأصغي إليها.. كان يتراءى لي أنني بعد ذهابها سأنهضُ وأسير.. في هذه الأثناء كنتُ أشعرُ بتحسن حالي طالما كانت موجودةً هناك لدرجةٍ أنني كنتُ أتكلمُ وأدفعها إلى الكلام لأطول وقتٍ ممكن.

خدمتني جزءاً من النهار كأخت تخدُم أخيها دون أنْ تفكّر أنها عند رجل. فاشترت لي بعض الليمون، وجعلت تقضمه بأسنانها الجميلة كي تنتزعَ قشرته ثم تعصرُ الثمرةَ بأصابعها في كوبي.

ثم انتزعتْ ميداليّةً فضيّةً صغيرةً تتدلى من

رقبتها وتختفي في صدرها فربطتها بدبوس إلى غطاء السرير فوقي ووعدتني أنني سأشفى قريباً بفضل صورة العذراء. وعندما مالتِ الشمسُ للمغيب، تركتني بعد أن عادتْ عشرين مرة من الباب إلى السرير كي تسألني عمّا تستطيع فعلهُ أيضاً وتذّكرني أنْ أصليَّ أمام الصورة قبل النوم.

هل كان ذلك بفضل الصورة أو بفضل الصلوات التي وجّهتها لها دون شك؟ أم بفضل الحنان والإهتمام اللذين قرأتهُما على وجهها؟ أم تأثير سروري بالتحدث إليها؟ لا أدري... لكني عندما بقيتُ وحدي استغرقتُ في نوم هادىء وعميق.

●●●

عندما استيقظتُ في اليوم التالي ورأيتُ كرسيَّ غرازييلا مُداراً صوب سريري كما لو كانتْ قد تركتني منذ وقتٍ قصير والميدالية الصغيرة تتدلّى فوقي مُعبرّةً عن الإهتمام النسائي الذي كان يعوزني منذ وقتٍ

طويل، خُيلَّ إليّ بادىء الأمر - وقبل أن استيقظ تماماً - أنّ والدتي أو إحدى أخواتي قد دخلتْ مساءً إلى غرفتي. إلاّ أنني عندما فتحتُ عيني واستعدتُ أفكاري الواحدة تلو الأخرى، ظهرَ لي وجهُ غرازييلا كما رأيتهُ بالأمس.

كان الطّقس صافياً وكنتُ قد أفدتُ من راحة الليل وخشيتُ البقاءَ وحدي لحاجتي إلى سماع نبرةِ صوتٍ معروف، فنهضتُ فوراً رغم ضعفي وشربتُ ما بقي من الليمون ثم استقلّيتُ عربةً قاصداً المارجيللينا.

وصلتُ إلى قرب منزل أندريا المنخفض فصعدتُ السلم المؤدي إلى الفناء في المكان الذي يصلُ إلى غرف الأُسرة، ووجدتُ على السطح غرازييلا والجدَّة والصيادَ العجوز وبيبينو والأولاد. كان الجميعُ يستعدون للخروج وقد ارتدوا أجملَ ملابسهم

لزيارتي، وكلٌّ منهم يحملُ في سلّةٍ أو في منديلٍ أو في يده ما رأوا أنّه الأجمل والأنسب ليُقدم إلى مريض: كزجاجة نبيذ أبيض مذهب من إيشيا مغُلقة بسدادة من الأعشاب الجبلية أو بعض التين المجففّ. أمّا الصغارُ فكانوا يحملون ليموناً. أطلقوا صيحة فرحٍ عند ظهوري أمامهم وأنا لا أزال ضعيفاً رغم ابتسامتي، ولفرحها أوقعت غرازييلا الليمونات التي كانت تحملُها في صدّارتها وصفّقت بيديها ثم ركضت إليّ صائحة:

ـ لقد قلتُ لكَ أنّ الصورةَ ستُشفيك إذا أمضيت ليلةٍ فقط على سريرك.. فهل خدعتك؟

أردتُ أنْ أردّ لها الصّورة فمدّتْ أصابعها ولمستها بتأثّر. قالت وهي تُرجعُ الميدالية إلى عنقها:

ـ سأعيدها لكَ إذا مرضتَ من جديد وهكذا ستنفعنا كلينا.

جلسنا على السطح تحت شمس الصباح وكان الجميعُ يبدون سعداء وكأنهم التقوْا بأخٍ أو ولدٍ عائدٍ من سفرٍ طويل. أنّ المرءَ يكتسبُ في ثمانية أيام أصدقاء من بين الناس الفقراء أكثر مما يكسبهُ في عشر سنين من بين أفراد المجتمع الراقي. لقد أصبحنا، أنا وتلك الأسرة أهلاً.

سألنا عن أخبار بعضنا البعض فعلمتُ أنّ القارب قد حمل معه السعادة وأن الشِّباك كانت موفقةً لدرجة أنّ الجدّة لم تكن تستطيع أن تبيعَ وحدها كلّ السمك أمام بابها. كان بيبينو الذي لم يتعدّ الثانية عشرة يُعادلُ صيّاداً في العشرين من عمره... أما غرازييلا فكانتْ تتعلّمُ مهنةً بدأتْ تكتسبُ منها نقوداً تكفي لكسوة إخوتها الصغار. وكانتْ توفّرُ بعضاً منها لوقتِ زواجها. كانت مهنتُها هي شغل المرجان الذي يُكوِّنُ ثروةَ مدن إيطاليا الجنوبية. وكان أحدُ أعمامها يستخدمُ بعضَ العمّال ففكّر في ابنة أخيه، وحمل إليها

المرجان والأدوات اللاّزمة ثم أعطاها الـدّروس الأولى
في فنّها البسيط. كانتْ غرازييلا تحرسُ الصّغار وتعمل
في البيت. بعد ذلك أخذ عمُّها يُرسلُ لها المرجـان مع
ابنه وهو شـاب في العشرين من عمـره، عامـلٌ ماهـر
لكنه بسيطُ التفكير قبيحٌ جداً. كان يصلُ مسـاءً فينظر
إلى عمل الفتاة ويُسدي لها النُّصحَ، وفي نفس الوقت
يُحاول أنْ يُعلِّمها القراءة.

قالتْ لي الجدّة خفيةً عن غرازييلا: «لنأمل أن
يكون هذا لصالح الاثنين». ورأيتُ أنّ العجوزَ كانتْ
تعتقـدُ أنها تعملُ لصـالح حفيـدتها لكنّ هـذه لم تكن
تشعرُ بشيء. أمسكتِ الفتاةُ بيدي وقادتني إلى غرفتها
كيْ تُريني أعمالها المرجانية وكانتْ مصفوفةً على القطن
في عُلبٍ وُضعتْ عنـد أسفـل السريـر. بعـد قليل
اشتـركتُ معها بـالعمل جنبـاً إلى جنب، فكنتُ أُديرُ
بطرف قدميَّ دولابَ الآلةِ الصغيرة بينما كانتْ تُقرِّبُ
غُصن المرجان الأحمر من المنشار الذي يقطعه، فيُغطي

غبارُه الوردي يديْها ويتطاير حتى وجهها فتحمرُّ بشرتها
وتبـرز زرقة عينيهـا المضيئتين. مسحتِ الغبـار وهزّتْ
شعرها الأسود فغطّاني الغبارُ بدوري. قالتْ:

ـ أليستْ مهنـة جميلة بـالنسبـة لإحـدى بنـات
البحـر مثلي؟ إنّنـا مدينـون له بكـل شيء: من قارب
جدّي والخبز الذي نأكله حتى حلقـات الأذنين هـذه.
ربمّا استعطتُ ذات يوم أنْ أعلّقَ إحداها بعد أن أكونَ
قد صنعتُ الكثير منها لنساءٍ أغنى وأجمـل مني. انقضى
الصبـاح في مثل ذلـك الحـديث والعمـل دون أن
تُساورني فكرةُ الذهاب. وعند الظهر شاركتُ بتناول
الغداء واستعدتُ قواي بفضل الشمس والهواء الطلق
وراحـة الفكـر وبسـاطـة الطعـام المُكوّن من الخبـز
والسمـك والثمار. وبعـد الظهـر سـاعـدتُ الأبَ في
إصلاح شبكةٍ قديمة.

كانتْ أصواتُ الـدار وآلة غـرازييلا وأصواتُ
الأولاد الـلاعبين بـالليمون أمـام الدار تُـرافق عملنا،

وكـانتِ الفتاةُ تخـرج من حينٍ لاخـر كيْ تهزّ شعـرهـا وتنـظفه. كنّـا نتبـادل النـظرات وبعضَ الكلمـات ثم نبتسم. وكنتُ أشعـرُ أنني جدّ سعيـد دون أنْ أعـرفَ السبب. وأودّ لـو كنتُ إحدى تلك النبتـات التي تنمو بين حجارة الجدار كي أبقى ساكناً في ذلك المنزل.

●●●

اقتـرب النّهـارُ من نهايتـه فحـزنْتُ لتفكيـري بضرورة الذّهاب والعودة إلى غرفتي، وكانتْ غرازييلا أوّل من لحظ ذلك فهمست ببعض الكلمـات في اذن جدّتها التي قالت وكأنّها تُخاطبُ أحد أولادها:

ـ لِمَ تُغـادرنـا هكـذا؟ ألم نكن بخير معـاً في بروسيدا؟ ألسنا نحن أنفسنا في نابولي؟ تعـالَ للسّكن هنـا. ليس في المنزل سـوى ثلاث غـرف، لكن بيبينو ينامُ في القارب، وستتسعُ غرفة الأولاد لغرازييـلا التي لن تـدخل غـرفتك إلا كي تعمـلَ في النهار. وهكـذا يمكنك أن تنتظر هنا عودةَ صديقك.

فرحَ الصيّادُ وبيبينـو وحتى الأولاد الذين أحبّـوا الغريب. أما غـرازييلا فلم تقـلْ شيئاً لكنهـا انتظرتْ ردّي بتأثر، فكانت تضربُ الأرضَ بقدمها بشكـلٍ لا شعوري كلّما ذكرتُ سبباً لعدم القبول.

أخيـراً رفعتُ عيني إليها فـرأيت بيـاضَ عينيهـا رطباً لمّاعاً وهي تكسرُ بين أصابعها غُصنَ نبتةٍ انتزعتهُ من إحـدى الأوعية التي على الشبـاك، وفهمتُ معنى حـركتهـا فقبلتُ مـا عُـرض علـيّ. عنـدئـذ صفّقت غرازييلا وقفزتْ فرحـاً وهي تجري في غـرفتها دون أن تلتفتَ كما لو كانتْ تُريدُ ألاّ تترك لي وقتـاً للعدول عن رأيي. نـادتْ بيبينو فنقـلا في لحظةٍ سـريرهـا وأثـاثهـا البسيط وقنديلها وصورتين أو ثلاثاً للعـذراء إلى غرفـة الأطفال، ثم كنسا الغرفةَ وزيّنـا الشبّاكَ بـأجمل أزهـار المنزل، فساعدتها ضاحكاً.

وعنـدما أُعـدّ كلّ شيء رافقتُ بيبينـو والصيـاد لشراء وإحضار الأثـاث الضروري كسـرير حـديدي

وطاولةٍ من الخشب الأبيض وكرسيّيْن. ثم أرسلتُ مَنْ يُحضر حقائبي من نابولي إذ لم أكن أُريدُ إضاعةَ ليلةٍ واحدة من تلك الحياة السعيدة. وفي نفس المساء نمتُ في غرفتي الجديدة فلم استيقظ إلاّ على صوت السنونو الدّاخل إلى الغرفة من خلال زجاج إحدى النوافذ المكسورة وعلى صوت غرازييلا التي كانتْ تُغنّي في الغرفة المجاورة. فتحتُ الشبّاك المطلّ على حديقة الصيادين الصغيرة بين صخور جبل بوزيليب على ساحة المارجيللينا ثم عدتُ إلى النوم. كنتُ لا أقوى على انتزاع نفسي من سريري وأنا مستسلمٌ لأشعة الشمس وسماع أصوات الريف ومشهد العصافير المارّة أمام نافذتي. فكّرتُ أن تلك الدّار الفقيرة تُحبّني وأن كلّ ذَهب العالَم لا يمكن أن يشتريَ خفقةَ قلبٍ أوبعض الحنان.

دخل بيبينو مراراً عديدة إلى غرفتي ليرى ما إذا كنتُ بحاجةٍ لشيءٍ، وحمل إليّ في سريري بعض الخبز

والعنب فتقاسمتُها مع السنونو. كان الوقتُ ظهراً عندما نهضت. نجحتُ بصعوبة في أن أجعلَ أصدقائي يقبلون بعض النقود للمصاريف التي سيتكبدونها من أجلي، فأضافوا رغيفين إلى تلك التي يبتاعونها كل صباح وقليلاً من السمك المقلي إلى طعام الغداء، وبعض الحليب والفاكهة المجففة إلى طعام المساء، وشيئاً من الزيت لمصباحي، ومن الخشب للأيام الباردة. وهكذا كانتْ بعضُ القطع النقديّة الصغيرة هي كلّ ما يلزمني يومياً كي أعيش. وعندها أدركتُ تماماً أنّ السعادة لا تُشترى بالمال وأنّ علينا أنْ نجدها حيث خبّأها الله.

●●●

عشتُ على هذه الحال أشهر الخريف الأخيرة وأشهرَ الشتاء الأولى دون أن يعكّر شيء صفوَ حياتنا. لم يعدِ الصياد العجوز وحفيده يذهبان إلى عرض البحر بسبب العواصف، فاستمرا يصطادان بمحاذاة

الشاطىء، وتبيعُ الأمُّ سمكها في الميناء بما يكفل لهم العيش.

بدأت غرازييلا تربحُ مزيداً من النقود، فأصبح الأجر الذي يحمله إليها عمُّها يوم الأحد لا يسمحُ لها فقط بتحسين كسوة إخوتها الصغار وارساهم إلى المدرسة، بل يسمح لها أيضاً بتوفير ملابس نساء الجزيرة لها وجدتها؛ ومن المناديل الحريريّة الحمراء التي تُمسك بالشعر الطويل وراء الرأس وتُغطّي الأكتاف، إلى السترات الخضراء والسوداء التي تُبرزُ نحولَ الخصر من الأمام، وحلق الآذان الذهبي. إنّ أفقر نساء الجزيرة يلبسن كلّ ذلك وليست هناك مصيبة تجبرهنّ على بيع هذه الثروات. فالشعورُ بالجمال في هذا البلد الجنوبي أقوى منه تحت سمائنا. والحياةُ لا تعني سوى الحب.

في أيام الآحاد والأعياد كانتْ غرازييلا تخرج من غرفتها إلى السطح مرتدية أجمل ملابسها وقد

وضعت في جانب شعرها بعض الزهور الحمراء. وعندما تسمع أجراس الكنيسة المجاورة، كانتْ تروحُ وتجيء أمام شبّاكي ضاربةً الأرض بحذائها الجديد ثم ترفع رأسها بحركة جميلة من عنقها. وعندما كانت تشعرُ أنّني أنظر إليها كانتْ تحمرّ قليلاً كما لو كانت خجلةً من جمالها. هناك لحظات كان جمالها الجديد يُدهشني كثيراً فأعتقد كأنني أراها للمرة الأولى.

وعندما كانت صديقاتها يُهملن المجيء لاصطحابها أو عندما لا يُرافقها ابنُ عمّها إلى الكنيسة، كنتُ أنا الذي أقودها إليها وأنتظرها خارجاً كما لو كنتُ أخاها أو خطيبها. وكنتُ أُسرُّ برؤية نظرات الإعجاب التي يرمقها بها البحارة الشباب على أرصفة المارجيللينا، لكنّها لم تكن ترى سواي فتبتسمُ لي من أعلى الدرجة الأولى وترسم إشارةً للصليب بإصابعها المبللة بالماء المقدس، ثم تنزل خافضة العينين. وبعد عودتها من الكنيسة، كانت

تُسارعُ إلى ارتداء ثوبها الأحمر البسيط وسترتها الخشنة الخضراء ويعود حذاؤها الخشبي إلى ضرب أرض السطح .

لم تكن تخرجُ في الأيام الأخرى. أما أنا فقد استأنفتُ حياة الدراسة، وكنتُ أقرأ للمؤرخين والشعراء في كلّ اللغات وأكتبُ أحياناً تارةً بالإيطالية وتارة أخرى بالفرنسية. إنّ الانسان لا يشعر أنّه حقاً حي إلا عندما ينقلُ إلى الخارج ما يعتملهُ في داخله فيرى نفسه من خلال كتبه. ولكنني وللأسف لم أكن راضياً عمّا أكتبهُ. . وكم حملتِ الريّحُ وأمواجُ بحر نابولي في الصباح عواطفي وأفكاري الليلية!

كانتْ غرازييلا تراني احياناً محبوساً وصامتاً أكثر من العادة فتدخلُ إلى غرفتي كي تنتزعني من كتبي وتتقدّم بهدوءٍ وراء كرسيي فتقفُ على رؤوس أصابعها كي ترى من فوق كتفي ما أقرأه وما أكتبهُ، ثم

تنتزع مني الكتاب أو الريشة بحركةٍ سريعةٍ وتهربُ فالحقُ بها إلى السطح مُتظاهراً بالغضب، وعندما تضحكُ أُسامحها فتقول لي وكأنّها والدة :

- ألن تنتهي هذه السطور السوداء المخطوطة على هذا الورق القديم من التحدّث إليك؟ ألا تعرف قدراً كافياً من القصص لتسردها لنا كلّ أيام الآحاد وفي كلّ أمسيات السنة كتلك التي ابكتني كثيراً في بروسيدا؟ ولمن تكتبُ طوال الليل تلك الرسائل الطويلة التي ترميها صباحاً إلى الريح والبحر؟ ألا تعتقدُ أنّك تؤذي نفسك عندما تقضي وقتاً طويلاً في الكتابة؟ أليس التحدّث إليّ أنا التي تنظر إليك أجملَ من التحدّث إلى تلك الكلمات أو تلك الظلال التي لا تصغي إليك؟ يا إلهي! بودّي أن أكون بذكاء تلك الأوراق! إذن لحدثتك طول النّهار ولقلتُ كلّ ما تطلبهُ منّي دون أن تحتاج لإرهاق عينيك وحرْق قنديلك.

بعد ذلك، كانت تخفي عنّي كتابي وريشتي، وتُحضرُ لي سترتي وقبّعتي البحرية وتحملني على الخروج فأطيعها مستاءً، لكنّي كنتُ احبّها.

الفصل الرابع

كنتُ أذهبُ للقيام بنزهاتٍ طويلة عبر المدينة وعلى طول الأرصفة في الريف، لكنّ هذه النزهات لم تكن حزينةً كالأيام الأولى لعودتي إلى نابولي. كنتُ أحسّ بالفرح لرؤية المدينة والسّماء والبحر، وأشعر أنّ أفكارَ صديقي تتبعني وأنّ هناك قلوباً ملأى بمحبتي تنتظر عودتي.

حلّتْ غرازييلا في قلبي محلّ صديقي الذي بقيَ في فرنسا. لم يكن ذلك الشّعور حباً أو شغفاً يُصيب الروح والحواس، وإنما كان نوعاً من الراحة النفسيّة.. لم أكن أفكّر أن أحبَّ بشكلٍ مختلف أو أكون محبوباً بقدر أكبر.. ولم أكن أدري ما إذا كانتْ

رفيقةً أو صديقةً أو اختاً أو شيئاً آخر بالنسبة لي، وكلّ ما كنتُ أعرفهُ هو أنني كنتُ سعيداً معها وأنّها سعيدةٌ بقربي. . فلم أكن أرغبُ في شيءٍ آخر إذ لم أكنْ قد بلغتُ السن التي يُحاولُ المرءُ فيها فهمَ سعادته. كانتْ سعادتي تكفيني دون أن أعرفَ سبَبها.

مضتْ ثلاثة شهور على مُساكنتي للأُسرة التي أصبحتُ فرداً منها، ثلاثة شهور كنتُ فيها جزءاً من تفكير غرازييلا دون أن تشعر هي بعظم المكانة التي احتللتُها في قلبها. . ولم يكن أحدنا يشكّ بأنّ جمالها يلحظهُ ويشعرُ به الجميع وبأنّه خطرٌ علي. ولم تكنِ الفتاةُ تُحاولُ إخفاءهُ عني أو إبرازهُ أمام عيني، بل لم تكن تفكّر به. . وهل تتساءلُ الأختُ عمّا إذا كانت جميلةً أو قبيحةً في عيني أخيها؟ لم تكن تزيدُ أو تنقصُ زهرةً من تلك التي تصفها في شعرها. . ولم تكن تنتعلُ حذاءَها في الصباح عندما تُلبس إخوتها الصغار ثيابهم، أو تُساعدُ جدّتها على كنس الأوراق اليابسة التي

تساقطتْ ليلاً على السطح. كانتْ تدخلُ غرفتي المفتوحة دوماً في كلّ ساعة وتجلس - كما يفعل بيبينو لو كان مكانها - على الكرسي قرب سريري.

وفي الأيام الممطرة كنتُ أمضي أنا نفسي ساعاتٍ طويلة في الغرفة التي تنامُ فيها ليلاً مع الصغار وتعملُ فيها نهاراً، فأُساعدها وأنا اتكلم أو الهو. كنتُ أقلّ مهارةً وأكثر قوّةً منها، لذا كنتُ أتفوّق عليها أحياناً، وهكذا كنّا نقومُ بعملٍ مزدوج، فتكسبُ في يومٍ واحد ما تكسبهُ في يومين اثنين.

أمّا في المساء عندما ينامُ الأولاد وباقي الأسرة، فكانت هي التي تُصبح التلميذة وأنا المعلم. ولما كان ابن عمّها لا يستطيع المجيءَ يومياً، كنتُ أحلّ محله فأُعلّمها القراءة والكتابة، وتعمل معي أفضلَ ممّا تعمل معه. . . ولا عجبَ في ذلك. . فالفتى المسكين كان يحبّ تلميذته أكثر ممّا ينبغي، ويفعلُ كلّ ما تريده

سعياً وراء أملٍ واحدٍ هو أنْ تبتسم لـه غرازييلا عند انصرافه وتقولُ له :

ـ «إلى اللقاء!».

لكن عندما يكون دوري في التعليم، كان الدّرسُ يُصبح جدياً وغالباً ما تستمر فيه إلى أن يثقلَ النّعاسُ جفنيْها. . عندئذ، كان يبدو من رأسها المنحني وعُنقها الممشوق أنَّ الفتاة المسكينة تبذلُ كلَّ جهدها للنّجاح . كانت تسندُ مرفقها إلى كتفي كي تقرأ في الكتاب مُتتبعة إصبعي. . وعندما تكتبُ كنتُ أمسك أصابعها بيدي. وعندما ترتكبُ غلطةً كنتُ ألفتُ نظرها إليها فلا تُجيب ، لكني كنتُ أراها أحياناً على وشك البكاء، فأتحدث إليها بلطف وأطلب إليها أن تبدأ من جديد. . . وعندما تُحسنُ القراءةَ أو الكتابة كان يبدو أنها تنتظرُ بفرحٍ أن أقولَ لها ذلك، فتلتفتُ نحوي وقد علتْ وجهها حمرةُ الخجل. . . عندئذٍ كنتُ أقرأ لها بعض الصفحات من

بول وفيرجيني التي كانت تُفضّلها على كلّ شيء، أو بعض أبيات الشّعر الغزلية لـ ـ(تاس)ـ فتُبكيها موسيقاها وتجعلُها تحلمُ وقتاً طويلاً بعد توقّفي عن القراءة. إنّ الشعر يُحرك قلب الشباب الذي سيولدُ فيه الحب. .

تلك الامسيات الطويلة الحلوة على ضوء القنديل لم تكن تجلبُ أفكاراً غير تلك الأفكار الطفولية . كنتُ محمياً ببرودتي وكانتْ مصونةً بنضارتها، فكنّا نفترق هادئين كما التقينا، فننامُ تحت سقفٍ واحد على بُعد خطواتٍ من بعضنا، كطفلين لَعِبا معاً في المساء ولا يُفكران بأكثر من لهوهما البسيط.

●●●

أخذ سيكّو، وهو اسم ابن عم غرازييلا، يُكثر من السهر في الشتاء عند أُسرة الصياد، فلا تُظهر له الفتاةُ أيَّ حنان بل غالباً ما سخرتْ منه بلطف، لكنه

كان راغباً بأن يروق لها لدرجةٍ تحملُها على أن تبتسمَ
له أحياناً بطيبة. . فيكتفي بذلك. إنّه من تلك
القلوب الضعيفة المحبّة التي تعرفُ أنّ الطبيعة لم
تُعطها ما يلزم كي تكون محبوبةً فتسخّر نفسها لخدمة
المرأة التي تُحبّها. إنّ المرءَ لَيشفقُ على هذا النّوع من
الناس. . . ولكن. . . أليسَ الحبّ من أجل الحبّ
أجمل من أنْ يُحبَّ الانسان كي يُحب؟. . . مسكين
سيكّو! فبدلاً من أن يحقدَ عليّ لأن غرازييلا تُفضلني،
كان يُحبني لحبّها لي، ولا يطلبُ المكانةَ الأولى أو
الوحيدة في قلب ابنة عمه، بل كان مُستعداً لقبول
المكانة الثانية أو حتى الأخيرة. ولكيْ يروق لها لحظةً
أو يتلقى منها نظرةً أو حركةً أو كلمةً، كان على
استعدادٍ لأن يبحث عنّي في أقاصي فرنسا وأن يُعيدني
إليها. بل إني أعتقدُ أنّه لم يكن ليحبني مُطلقاً فيما لو
آلمت ابنة عمه. ربما كان باردَ الأعصاب متعقلاً، وفكرّ
أنّ ابنة عمه لن تُحبني إلى الأبد، وأنني لن أبقى صديقاً

لابنة صياد من بروسيدا. وعندئذ ستبقى وحيدةً
وستعودُ إليه. .

كان الأبُ يُفكر بشكلٍ أفضل، ولعلمه بحب
سيكّو لابنة أخيه كان يأتي لرؤيتها من وقت لآخر.
كان يجدُها ذكيةً وجميلة فقررّ أن يزوجها بابنه. ولما
كان قد أصبح غنياً بالنسبة لعامل، فقد كان واثقاً من
أنّ أندريا وزوجته والفتاة سيسُعدهم القبول بابنه.

• • •

في الرابع والعشرين من كانون الأول عُدتُ إلى
البيت مُتأخراً أكثر من عادتي كي أتناولَ العشاءَ مع
الأسرة، فشعرتُ ببعض البرود من أندريا وزوجته،
نظرتُ إلى غرازييلا فرأيتُ أنها قد بكتْ وأنّ الطمأنينة
والمرح قد زالا عن وجهها فلم أجرؤ على السؤال.

خلافاً لعادتها لم تنظر إليّ بل كانت ترفعُ قطعَ
الخبز إلى فمها دون أنْ تُعير انتباهاً لما تفعلهُ. كانتْ

تُحاولُ الأكلَ دون أن تستطيعَ ذلك. وقبل الأنتهاء من
الطعام قادتِ الأولادَ للنوم وحبستْ نفسها في غرفتهم
دون أن تتمنى مساءً سعيداً لجديّها. . وتركتنا وحدنا.

بعد خروجها سألتُ الأبَ والأمّ عن سبب هذا
التحوّل وعن حزن غرازييلا، فأخبراني أنّ والدَ سيكّو
قد أتى أثناء النهار وطلب يدَ حفيدتهم لابنه، الأمر
الذي يُعد سعادةً كبرى وصفقةً هامّةً بالنسبة للأسرة،
لأنّ سيكّو سيُصبح غنياً مما يُمكّن غرازييلا الطيبة
القلب من أخذ أخويْها الصغيرين معها وتربيتهما كما لو
كانا ولديها. . وهكذا يتأمّن لهما ما يأكلانه حتى موتهما.
لذا قَبِلا فرحين بهذا الزواج وحدّثا غرازييلا فلم تُجب
بشيء. إنّ صمتها ودموعها ناتجةٌ عن تأثرها لكن
ذلك سيزول بالسرعة التي تطير فيها الذّبابة عن
الزهرة. وأخيراً. . . قالا لي أن والدَ سيكّو قد اتفقَ
معهما لاعلان خطبة ولديهما بعد أعياد نهاية السنة.

كانا لا يزالان يتكلمان في الوقت الذي لم أعُدْ

أسمعُ فيه شيئاً منذ زمنٍ طويل، إذ لم أكن قد علمتُ
بحقيقة مشاعري نحو غرازييلا لاعتقادي أنها مُقتصرةٌ
على الصداقة، لكنّ التأثر تملكني لمجرّد التّفكير بأنّها
ستُؤْخَذُ مني وتُعطى لآخر، وأنها بعد أن كانت رفيقتي
وصديقتي ستُصبح بالنسبة لي غريبةً غائبة فلا أعود
أراها أو أسمعُ صوتَها يُناديني. أيّ فراغٍ سأشعر به
يوم يأخذها زوجُها إلى بيتٍ آخر! فكرتُ حينئذ
بالغرفة التي تنامُ فيها وبغرفتي التي لن تدخل إليها،
وبالمائدة التي لن أراها جالسةً إليها، وبالسطح الذي
لن تُوقظني ضحكاتها منه في الصباح، وبالكنيسة التي
لن أصحبها إليها يوم الأحد، وبالقارب الذي سيبقى
مكانها فيه خالياً. . . كلّ ذلك جعلني أشعرُ أنّ
العاطفة التي تشدّني إليها سواء كانت حباً أو صداقة،
أقوى مما كنتُ أظن، وفهمتُ أنّ سروري بالعيش في
نابولي لا يعودُ للبحر أو القارب أو غرفتي في البيت أو
الصياد وامرأته أو بيبينو والأولاد. . بل لغرازييلا التي

إذا اختفت اختفى كـل شيءٍ دفعةً واحــدة. . وإذا
ذهبت فلن يبقى شيءٌ في الدار. هذا الشعور أصابني
بضربةٍ قويّة لم أكن أتصورها. . .

●●●

عُدتُ بصمتٍ إلى غرفتي فارتميت على سريري
وأنا بكامل ملابسي. . حاولتُ أنْ أقرأ أو أنْ أكتب أو
أنْ أفكـر لأروِّح عن نـفسي بعـمـلٍ صعب لكنّ
جهودي ذهبتْ عبثاً إذْ ألحتْ عـليّ فكرةٌ واحـدة.
وكانتْ صورةُ غرازييلا أمامي تُلازمني فأشعرُ بعذوبتها
وأنـا أوشـكُ أنْ أفقـدهـا لأنني لم أرَ الحبَّ المغلفَ
بـالحنان. ورغم ذلك فلم أحسّ بكلّ شيء في ذلك
الليـل الطويـل، فكنتُ كمنْ تلقىّ ضربـةً ولم يعرف
بعد موضعَ الألم لكنه يتألمُ من كلٍّ موضع.

تـركتُ سريـري قبل أن يصـدرَ أيُّ صوتٍ عن
المنـزل، فقد كـانت هناك قـوّةٌ تدفعني لـلإبتعـاد عنه
بعض الـوقت. . وأخبرتُ بيبينو أنّني لن أعودَ قبل

أيـام، ثم سلكتُ اتّجاهاً دون أنْ أختاره بـالـذات. .
سـرتُ على أرصفـة نابـولي الـطويلة وعلى الشـاطىء
وقرب سفح الفيزوف ونمتُ على أحد الحجارة. . . وفي
اليـوم التـالي طلبتُ في قـريـة سـان سلفـاتـوري أن
يصحبني أحـدُهم حتى القمـة فلم يجـرؤ أحـدٌ عـلى
ذلك. . . وعاودتْ الصعود وحدي. . .

كان البركانُ يُدوّي أحياناً فتتساقطُ هنا وهنـاك
حجـارةٌ لا تزالُ تتّقد أسمعُها تتـدحـرج ورائي إلى
الحضيض. لم يـوقفني شيء حتى بلغت حافـةَ الفوهـة
فجلست. أشـرقتِ الشمسُ عـلى الخليـج والـريف
ومدينة نابولي الجميلة فتأمّلتُ كلّ ذلـك الجمال ببـرود
وبحثتُ عن دار أندريا وسط خُضـرة الأشجار القـاتمة
في الجـانب الآخر من بـوزيليب، إذ ليس للإنسان في
كلّ الطبيعة سوى نقطتين أو ثلاث يهمه أمـرها. فـإذا
انتُـزع القلبُ الذي يُحبك فما الـذي يبقى في الحيـاة؟
هكذا هي الحال بالنسبة للطبيعة. . . أزِلْ منها المنظرَ

والـدارَ اللذين تبحثُ أفكارك عنهما واللذين تملأهما ذكرياتك فلا يبقى فيها سوى الفراغ .

إنّ كـلّ مسـافرٍ يـرى العـالم بعـينٍ مختلفـة . . والغيمةُ التي تلفّ النفسَ تُغطي الأرضَ أكثر من غيمة في السماء .

نـظرتُ إلى كلّ مكـان فلم أر شيئاً . . ونـزلتُ كالمجنون إلى داخل الفوهة وسط الدّخان واللهب ثم صعدت . عُدتُ في المسـاء إلى سـان سلفـاتوري وأمضيتُ اليـوم التالي اتنزه في شوارع مـدينة بـومبايا الميتة ، فجعلني منظر ذلـك القبر الجمـاعي الذي فُتح بعد ألفي سنة مُظهراً شـوارعه وأبنيتـه وفنونـه ، بارداً كجبل الفيزوف . تلك المدينة التي اجتاحتها رياحُ الله لم تعُد تُثيرني .

مشيتُ عـلى غبار الإنسان دون أنْ أُعيرَ الأمـرَ انتباهاً ، فالمرءُ لا يستطيع أن يبكي الجميـع ولكلّ قـرنٍ ألمه .

غـادرتُ بـومبـايـا فمـررت بـين كـاستيللامـار وسورانت وعشتُ بضعة أيام في هاتين القريتين مُتنقلاً بين الواحدة والأخرى . ظنّ السكان أنني رسّامٌ يدرسُ المنـاظرَ لأنني كنتُ أكتبُ من وقتٍ لآخـر عـلى كتاب رسمٍ صغـير تـركـه صـديقي . كـان ينقصني كـلّ شيء . . . فلم استطعِ الإستمرار وقتاً أطول . وبعـد انقضـاء الأعياد عـدتُ إلى المارجيللينا ليلاً يتنازعني الفرحُ لرؤية غرازيـيلا والخوفُ من أنْ أعـرفَ أنني لن أراها بعد ذلك . التقيت بيبينو عـلى بُعد خـطواتٍ من الدار فأطلق صيحة فرحٍ لرؤيتي وعانقني كـأخٍ صغير ثم اقتادني إلى قاربه وتحدث إلي . . .

لقـد تغـيّر كـلّ شيء في الـدار ، فلم تكفّ غرازييلا عن البكـاء منذ رحيـلي وأقلعتْ عن الجلوس إلى المـائدة لتنـاول الطعـام وعن العمل ، فهي تقضي كلّ أيامها حبيسة غرفتها دون أنْ تردّ على أي نـداء . . أمّـا لياليهـا فتمضيها بـالتنزه عـلى السطح . الجيرانُ

يقولون إنّها جُنّتْ. . أمّا هو فيعرفُ أنّ ذلك غير صحيح. سببُ كلّ ذلك الشر، كما يقول الولد، هو أنّ الأهلَ يريدون إعلانَ خطوبتها على سيكّو رغم رفضها. لقد رأى بيبينو وسمعَ كلّ شيء. كان والدُ سيكّو يأتي كلّ يوم يطلبُ رداً من جدّه وجدّته اللذين يطلبان موافقة غرازييلا فترفض قائلةً إنّها تُفضّل الهربَ إلى بلدٍ أجنبي.

كان أندريا وزوجته يُحدّثانها عن سنها وشعرها الأبيض وإخوتها الصغار. . فتبكي. وفي كلّ مساء كان سيكّو يأتي فيجلسُ أمام باب غرفة ابنة عمّه ويلعبُ مع الصغار. كان يقولُ لها صباح الخير ومساء الخير من وراء الباب لكنّها نادراً ما تردّ عليه بكلمةٍ واحدة، فيذهبُ ليعودَ في الغد.

أردف بيبينو يقول: إنّ أُختي مخطئة، فسيكّو يُحبها كثيراً وهو طيّب القلب يُمكن أن يُوفرّ لها السعادة. . وأخيراً استجابت هذا المساء لرجاء جدّتي

وجدّي ففتحت البابَ قليلاً ومدّتْ له يدها فألبسها خاتماً بإصبعها ووعدت أنّها ستُخطبُ إليه غداً. . ومن يدري إذا كانت ستُغير رأيها غداً. . . هي التي كانت وديعةً ومرحةً! يا الهي! كم تغيّرتْ! إنك لن تعرفها. . .

•••

نام بيبينو في القارب فتركتهُ ودخلتُ إلى المنزل.

كان أندريا وزوجته على السطح فاستقبلاني بودٍّ وقالا لي إنّني قد أخطأتُ بتركهما لوحدهما طيلة ذلك الوقت. . ثم قصّا عليّ آلامهما وآمالهما. قال أندريا:

ـ لو كنتَ هنا، أنت الذي تُحبك ولا ترفض لك طلباً، لساعدتنا كثيراً. . كم نحن مسروران بلقائك! إنّ الخطبة ستُعقد غداً وستحضُرها لأنك تجلبُ لنا السعادةَ دائماً.

آلمتني هذه الكلمات لأنّ شيئاً ما كان يُحدّثني

بأنّ شقاءَهما سوف يأتي مني.. كنتُ أتحرّقُ شوقاً لرؤية غرازييلا، فرفعتُ صوتي بالحديث إلى أهلها ومررْتُ مراراً أمام بابها كمن لا يُريدُ أن يُنادي لكنه يرغبُ في أنْ يُسمع. بقيتْ صمّاء بكماء ولم تظهر.. دخلتُ إلى غرفتي وقد أتعبتني ليالي السهر فارتميتُ على سريري كالميت دون حراك... ونمت. أفقتُ مرّتين أو ثلاث مرات نصف استفاقة وكان ذلك في إحدى ليالي الشتاء التي تفوقُ كآبتها ليالي البلاد الباردة. كان البرقُ يُضيء السماء، والبحرُ يتكسّر على الشاطيء فيرتجفُ بابي تحت تأثير الرياح...

خُيِّل إليّ أنّ بابي قد فُتح وأغلق من تلقاء نفسه، وأني قد سمعت صياح بعضهم وسط أنّاتِ البحر، واعتقدتُ أنّ صوتاً يطلب مساعدتي. نهضتُ فلم أعد أسمعُ شيئاً، فاعتقدت أنني قد حلمتُ فعدتُ إلى النوم.

في الصباح أشرقتِ الشمسُ فعدتُ إلى النوم.

في الصباح أشرقتِ الشمسُ في سماءٍ صافية، فاستيقظتُ على صراخ الصياد وزوجته أمام غرفة غرازييلا. كانت الصغيرة قد فرّت أثناء الليل بعد أن أيقظتِ الولدين وقبّلتهُما وأشارتْ إليهما بالسكوت، ثم تركتْ فوق سريرها أجملَ ثيابها وحلقها ومناديلها الحريرية والنقود القليلة التي كسبتها.

أمسك الأبُ بيده قطعةَ ورقٍ وُجدت مربوطة بدبوسٍ إلى السرير عليها خمسة أو ستة سطور رجاني أنْ أقرأها. أخذتُ الورقةَ وقرأت: «لقد وعدتُ بأكثر مما ينبغي.. هناك صوتٌ يقول لي إنّ الأمر أقوى مني.. أفضّلُ أنْ أُصبحَ راهبةً.. ساعدوا سيكّو و«السيد» على نسياني... سوف أصلي إلى الله من أجله ومن أجل الصغار. أعطوهما كلَّ ما أملك وأعيدا الخاتم إلى سيكّو».

شرعتْ كلُّ الأسرة في البكاء وسمع الصغيران

اللذان لم يُلبسهما أحدٌ ثيابهما أن أُختهما قد رحلتْ إلى الأبد.. فبكيا مع العجوزين وأخذا يجريان في كلّ أنحاء المنزل يُناديان غرازييلا.

سقطتِ الورقةُ من يدي فطارتْ إلى أمام باب غرفتي. وعندما أردتُ التقاطها رأيتُ أنّ هناك موضعاً جافّاً مما يدّل على أنّ الفتاة المسكينة قد بقيتْ هناك طوال الليل جالسةً تحت المطر.. ووجدتُ أيضاً تحت الباب زهرةً كنتُ قد قلتُ لها إنّها جميلة. أخيراً عثرتُ على الميدالية الصغيرة التي كانت تعلّقها دائماً فوق صدرها والتي ربطتها قبل شهورٍ فوق سريري أثناء مرضي، فلم يبق لديّ شك أنّ بابي قد فُتح وأُغلق أثناء الليل وأنّ الفتاة المسكينة قد أرادتْ توديعي. التقطتُ الزهرةَ والميدالية وأخفيْتُهما.

تأثر أفرادُ العائلة لرؤيتي أبكي مثلهم.. وقد بذلتُ جهدي للتخفيف عنهم. انطلق سيكّو ووالده للبحث عن غرازييلا في نابولي. أمّا أنا - الغريب -

فذهبتُ إلى أرصفة المرفأ.. وأخيراً.. عُدنا جميعاً إلى الدّار حزانى.. ولم يقدر أحدٌ على تناول لقمةٍ واحدة من طعام الغداء، وجلس أندريا وزوجتُه يائسين أمام باب غرفة غرازييلا.. بينما عاد بيبينو وسيكّو إلى المدينة.

●●●

خرجتُ بعدهما وحدي وسلكتُ صدفةً الطريق المؤدي إلى بوزيليب، فبلغتُ شاطىء البحر عند جزيرة نيسيوا الصغيرة.

ومن شاطىء البحر وقعتْ عيناي على بروسيدا فتذكّرت أنّ للفتاة صديقة راهبة في مثل سنّها تعيش عند أهلها، وكانت قد دلّتني على كنيستها. خطر لي أنّ غرازييلا قد تكون عند تلك الصديقة فأسرعتُ الخطى على طريق بوزول، وهي مدينةٌ يجدُ فيها المرءُ قواربَ تقلّهُ إلى بروسيدا.. فوصلْتُها في أقلّ من

ساعة. جريْتُ إلى المرفأ والليل يوشكُ أن يهبط وكان البحرُ هائجاً. ضاعفتُ الأجر لمجذفين كي أحملهما على نقلي إلى بروسيدا فساعدْتهما على إنزال قاربهما إلى الماء ووصلنا بعد ساعتين.. فصعدتُ درجَ السلّم المؤدي إلى بيت أندريا وأنا أرتجفُ وأقول لنفسي:

- إذا كانتْ غرازييلا في الجزيرة فستأتي أول الأمر إلى هناك كما يذهبُ الطيرُ إلى عشه والولدُ إلى بيت أبيه.. وإذا لم تعد إلى هناك فسأعرفُ ما إذا كانْت قد مرّت بالدار وأعثر عليها.. وإذا لم أجد شيئاً أكونُ قد أضعتها إلى الأبد.

وصلتُ إلى البيت وكنتُ أعرفُ مخبأَ المفتاح فمددْتُ يدي إلى الفَجْوة الصخريّة التي تحت العشب، وكانت أصابعي ترتجفُ لمجرد التفكير بأنها ستحسّ برودةَ الحديد.. لكنّ المفتاح لم يكنْ موجوداً. عندئذ، أطلْقتُ صيحةَ فرحٍ ودخلتُ

الفناء بخطى صامتة. كان البابُ مُغلقاً وكذلك النوافذ.. لكنّ ضوءاً كان ينفذُ من خلال النافذة خلف التينة.. فهناك إذن قنديلُ مُضاء. منْ ذا الذي تمكنّ من العثور على المفتاح وفتح الباب وأشعلَ القنديل إذا لم يكن ابنةُ الدار؟ وعندها لم أشكّ في أنّ غرازييلا على بُعد خطوتيْن منّي.. فشكرتُ الله وحمدتُه. لم يكن هناك صوتٌ يخرجُ من الدار فألصقتُ أُذني على الباب وخيّل إليّ أنّني اسمعُ صوتَ تنفس. دفعتُ البابَ بخفّةٍ كما لو كانتِ الريحُ قد عَنُفَتْ، وكنتُ أُريدُ لفْتَ انتباه الفتاة دون أنْ أُخيفها بمناداتها. توقّف التنفّس فناديْتُها عندئذٍ مُضمّناً ندائي كلَّ الحنان الذي وجدتُه في قلبي... وأجابتني صيحةٌ خفيفةٌ من أقصى المنزل.

كرّرتُ النّداءَ راجياً إيّاها أنْ تفتحَ لصديقها وأخيها الذي أتى وحده رغم الليل والبحر الهائج للبحث عنها وانتشالها من حُزنها ونَقْل غُفران الاسرة

لها، ومن ثم لإعادتها إلى جدّتها المسكينة وإخوتها الصغار الأعزاء . . .

صاحتْ بصوتٍ مُتهدّج: «يا إلهي! إنهّ هو! وهذا اسمي! إنّه صوته»!.

ناديْتُها: «غرازييللينا» وهو اسمُ التحبب الذي كنتُ أطلقهُ عليها أحياناً فقالت: «إنه هو بالتأكيد! يا إلهي! إنّه هو»!

سمعتُها تنهضُ من فوق الورق اليابس وتتقدّمُ خطوةً لتفتحَ لي ثم تقعُ من فرط الضّعف أو التأثّر فلا تستطيعُ النّهوض.

دفعتُ الباب بكتفي وبكلّ قواي فانفتح ودخلت. كان القنديلُ المضاء أمام صورة العذراء لا يجود إلاّ بنورٍ شحيح، فركضتُ إلى أقصى الغرفة الثانية حيثُ سمعتُ صوتَ غرازييلا. فوجدْتُها قد تهاوت على كومةٍ من الخنشار الجاف التي تتخذها سريراً

وعيناها المملؤتان بالحمّى والحب تلمعان كنجمتين في الليل البهيم.

كانت تُحاولُ رفع رأسها فيقعُ من الضعف على الورق، وكانت شاحبة الوجه مُتورّدة الخدّيْن، دامعةَ العينين، حافية القدمين، مُصْطكّةَ الأسنان، والمنديلُ الأحمر الذي يلفُّ عادةً شعرها الكثيف محلولاً وقد أُسدل كنقابٍ على جبينها وطرف عينيها! وكان المرء يرى أنّها استعملتهُ لإخفاء دموعها ولم ترفعهُ إلاّ عندما سمعت صوتي.

●●●

ارتميتُ على ركبتي أمام كومة الخنشار وتناولتُ يديْها الباردتين فوضعتُهما على شفتي كي أُدفئهما. شدّتْ على يدي ففهمتُ أنها تشكرني، وخلعْتُ سترةَ البّحارة، وألقيْتُها على قدميها ولففتُها بها. كانتْ تدعني أفعلُ كطفلٍ صغير، وكانت سعيدةً مُكتفيةً

بتتبع حركاتي بعينيها دون أنْ تقوى على الإتيان بأيّة حركةٍ لمساعدة نفسها . . . أشعلتُ بعدئذٍ النّارَ للتدفئة ثم عـدتُ للجلوس عـلى الأرض قـرب سـريـر الأعشاب، فقالتْ وهي تتكلم بصوتٍ منخفض كما لو كانت قد فقدتْ كلَّ قوّة :

ـ «كم أشعرُ بالـراحة! لقـد أردتُ إخفاءَ الأمر عن نفسي وعنك فلم استطع . بـاستطاعتي أنْ أموت لكن لا يُمكنني أن أُحب سـواك . لقـد أرادوا إعـطائي خـطيبـاً لكنّـك أنت خـطيبي . . ولن أهبَ نفسي لشخصٍ آخر على وجه الأرض . . فإما أنت وإما الله في السماء . . لقد فهمتُ ذلـك منـذ اليـوم الأول الـذي تعلق فيـه قلبي بـك . إنّي أعـرفُ جيـداً أنّني لستُ سوى فتـاة فقيـرة غـير مؤهّلة لأن تُـلامسَ قـدميـك بفكرها، لـذا لم أطلب إليك أبـداً أن تُحبّني . . أمّا أنـا فـإنِي احبّكَ . . أحبّـكَ . . أحبّـكَ ! . . والآن إسخـر منّي إن شئتَ كـما تسخرُ من مجنـونةٍ تتـوهم بـأنها ابنـةُ

ملك . . وإذا كـرّرت القولَ إني أُحبّـك فسأقـولُ لهم بنفسي : «أجل، إنني أُحبّه! ولـو كنتم مكاني، لفعلتم ما فعلت . . ولأحببتُموه أو مُتمّ»!

كنتُ خافضَ العينين لا اجرؤُ على رفعهما خوفـاً من أنْ تكشفَ نـظرتي الكثير أو ألاّ تقـول مـا يكفي . ومـع ذلك، فقـد جعلتني تلك الكلمات أرفـعُ رأسي الملتصق بيديها وأردتُ أنْ أتكلمّ فوضعتْ إصبعها على شفتي وتابعتْ :

ـ دعني أقـولُ كلَّ شيء . . فـأنا الآن راضيـة لم يعد يُخامرني الشك . . أصغ إلي . . فالبـارحة عنـدما هـربتُ من الدار بعـد أنْ قضيتُ ساعـاتٍ أبكي أمام بابك، أتيتُ إلى بروسيدا خلال الريح والمطر . . كـان بابُ الرهبان مُغلقاً فصعـدتُ إلى هنا لقضـاء الليل في بيت والـدي قبل دخول بيت الله، وحمّلتُ ولداً رسالةً إلى صـديقتي أطلبُ إليها فيهـا أنْ تأتي لاصطحابي في

الصباح، بعدئذ أضأتُ القنديل أمام العذراء
وسجدتُ أصلّي قائلةً: «أيتها الأم المقدّسة إذا ظهر هو
في البداية فسيكون ذلك إشارةً إلى أنك لا تريدينني
وأنَّ عليَّ أنْ أعودَ معه لأحبّه بقيةَ حياتي..» ثم
أضفتُ: «فدعيه يأتي.. هذا هو شعري، ذلك الشعرُ
الطويل الذي كان يحبّ رؤيته وهو يتطاير في الهواء
على كتفي.. خُذيه فأنا أُعطيه لكِ وسأقصه بنفسي».

قالتْ ذلك ونزعتْ بيدها المنديلَ الحريري
الذي يُغطّي رأسَها ودلّتني باليد الأخرى على شعرها
المقصوص والموضوع إلى جانبها على السرير العشبي،
ثم تابعت تقولُ بفرح:

ـ لقد ارسلتْكَ العذراء وسأذهبُ إلى حيث
تشاء.. فشعري لها وحياتي لك.

رأيتُ عندئذ رأسها الجميل الذي تُحاولُ رفعه
وشعرها المجذوذ منشوراً يتدلى على كتفها، فشعرتُ في
قرارة نفسي بمعنى الحب.

غير أن ذلك الشعور لم يكن للأسف سوى خيال
الحب، وكنتُ أصغر من ألاّ أُخدعَ به، فقلتُ لها
بتأثّرٍ إنني أُحبها.. وصدّقتني لأنها كانتْ بحاجةٍ إلى
تصديقي كي تعيش. انقضى الليلُ بالتحدث على
هذه الصورة وأنا مُمسكٌ بيديها اللتين شعرتُ بهما
تدفآن. وذهبتُ فأحضرتُ لها ماءً بارداً كي تشربَهُ في
يدي ولتمسحَ جبينها وخدّيها، ثم اشعلتُ النّارَ من
جديد وعدتُ فجلستُ على الحجر إلى جانب كيس
الخنشار الذي استراح عليه رأسُها كي اسمعَها
وأستزيد من سماعها وهي تُحدّثني عن حبها: كيف
وُلدَ دون أنْ تشعرَ به، وكيف خافتْ منه، وأيّة علامةٍ
اعطتها لتُعلمني بحبّها لي، وكم من المرات أظهرت لي
حبّها، وفي أي يوم ظنّتْ أنّني لا أحبّها، وفي أيّ يومٍ
آخر تأكّدتْ من العكس.. ثم ذكّرتني بالساعات
والحركات والإبتسامات وبصور وجهينا طيلة تلك
الشهور الستّة. فهي تذكرُ كلّ شيء.. تماماً كما

يحتفظ عشبُ الجبال الجنوبية بأثر اللهب الذي
أحرقه.

كانتْ كأنّها ترفعُ الأقنعة، الواحد تلو الآخر،
عن نفسها أمامي، فتُظهر نفسها على حقيقتها كما
تفعلُ أمام الله. وكنتُ أُصغي إليها بخفة وطيش
الشباب الذي لا يدركُ عمق مثل هذه المشاعر، حتى
ولو كان يعتقدُ أنّه يحسّها.

●●●

هكذا انقضى ذلك الليلُ الطويل من ليالي
الشتاء. فخُيلّ الينا عند طلوع النّهار أنه بالكاد قد
بدأ. كانتِ الشمسُ مرتفعةً عندما وصلتُ إلى البيت
من فوق الصخور. وفي اللحظة التي فتحتُ فيها
الباب رأيتُ كلّ اسرةِ الصياد تصعدُ السلّم جرياً..
فقد أرسلتْ راهبةُ بروسيدا الصبيّة، صديقةُ
غرازييلا، أحدَ إخوتها في الليل إلى نابولي كي يُعلم

أهلها بالأمر، فوصلوا يملؤهم الفرح لإعادتها حرّةً
مغفوراً لها.

ركعتِ الجدّةُ على ركبتيها قرب السرير وهي
تدفعُ بيديْها الولدين الصغيريْن اللذيْن أحضرتهما
لمساعدتها على تغيير رأي أختهما. فارتمى الطفلان
بين ذراعيها وهما يصيحان ويبكيان. وعندما نهضت
الفتاةُ لمعانقة جدّتها سقط المنديل عن رأسها فظهر
شعرها المقصوص، ورأتهْ العجوز ففهمت وبكتْ..

في المساء عُدْنا جميعاً إلى نابولي، وكنتُ في نظر
العجوز الصياد أنا مَنْ عثَر على غرازييلا ومَنَعها من
الإنخراط في سلك الراهبات، وبعبارةٍ أُخرى كنتُ
أنا مَنْ أنقذها، فلم يفهم أحدُ حقيقة الأمر، وظنّ
الجميعُ أنّ بشاعةَ سيكّو هي التي أخافتها، فتركوا
تدبير الأمور للعقل والوقت. لذا، وعدوا الفتاةَ ألاّ
يضغطوا عليها في موضوع الزواج حتى أنّ سيكّو ألحّ

على أبيه ألّا يعود للتحدث في هذا الأمر، وكان بنظرته يطلبُ الصّفحَ من ابنة عمه لما سبّبه لها من ألم. وهكذا عادتِ الطمأنينةُ إلى الدار.

●●●

لم يعدْ هناك ما يُلقي بظلّه على مُحيا غرازييلا أو على سعادتها سوى أنّ هذه السعادة سوف تزول عاجلاً أو آجلاً بعودتي إلى بلدي. وعند ذِكْر اسم فرنسا كان وجهُها يشحب كلياً. وذات يوم عند عودتي إلى غرفتي وجدتُ كلّ ملابسي الرسميّة ممزّقة ومُبعثرةً على الأرض. قالتْ غرازييلا راكعةً وقد رفعت نحوي وجهاً بائساً:

ـ «سامحني فأنا التي صنعتُ هذه الحماقة.. سامحني. فكلُّ ما يُذكرني بأنّك ستخلعُ يوماً ما ثياب البحارة هذه يؤلمني أشدّ الألم».

فيما خلا هذه العواصف الصغيرة من الحنان

التي كانت تنتهي بالدموع، فقد أمضينا شهوراً من السّعادة التّامة، وكنّا ننسى سويّة أن هناك عالماً آخر غير عالمنا وراء هذا المنزل الصغير وهذا السطح المشمس وهذه الغرفة الصغيرة وذلك القارب الصغير المُلقى على الرمال قرب البحر الجميل الذي يحملُ إلينا هواؤه الطّراوة النديّة.

لكن.. ولسؤ الحظ، كانتْ هناك ساعاتٌ نتذكّر فيها أنّ العالم لا ينتهي هناك وأنّ الشمس ستشرق يوماً فلا تجدُنا معاً. وفي قرارة نفسي كنتُ قد بدأتُ أُحبّ غرازييلا بقدرٍ أكثر بكثير ممّا كنتُ أودّ أنْ أعترفَ به، ولو لم أُحبها بهذا القدر لما شغلتْ تفكيري إلى ذلك الحد. ومنْ ذا الذي لا يُحبها؟ لقد كان جمالها في مستوى حبّها بعد أنْ تحوّلت بين عشيةٍ وضحاها من طفلة إلى فتاة.. فتغيّر وجهُها وصدْرها وقامتُها، ولم تعد قدماها تضربان الأرض بقسوة. باختصار

شديد، كان جسمُها يبدو وكأنّه مُثقلٌ بأوّل أفكارها الغرامية.

كان شعرُها ينمو بقوّةٍ وسرعةٍ كنبات البحر، وغالباً ما لهوْتُ بقياسه وبلفه حول يدي. وكانتْ بشرتُها تكتسبُ لونَ المرجان الذي يكسو أطرافَ أصابعها، وعيناها تتفتّحان على مناظرَ مُفاجئة.

كانت ترمُقني بنظراتٍ جديدة.. وتقومُ بحركاتٍ لم يسبق لها القيام بها، فأشعرُ بذلك وأرتعشُ من فرط التأثر: غايةُ القول إنّنا طفلان سعيدان.

ورغم ذلك فإن شيئاً من الحزن كان يشوبُ تلك السّعادة منذ بعض الوقت دون أنْ نعرفَ له سبباً.. إنّه الشّعورُ بقصر الوقت المتبقي لنا..

غالباً ما كانتْ غرازييلا تُلبس أخويْها الصغيرين وتمشط شعرهما، وبدلاً من أنْ تستأنفَ عملها بفرح، تجلسُ عند جدار الفناء تحت ظل أوراق

النبتة العريضة لتبقى هناك ساعات طويلة ساهمةَ الطّرف جامدةَ الحركة...

وعندما تسألها جدّتها عمّا إذا كانت مريضة، تُجيبُ أنها بخير.. لكنّها تَعبةٌ من العمل... وهي لم تكن تحبّ أنْ تُطرحَ عليها اسئلة. وكانتْ تشيحُ بوجهها عن الآخرين وتُحدّقُ بي بصمت، وأحياناً تحرّكُ شفتيها دون أن يصدرَ عنهما صوت. وإذا جلستُ إلى جانبها وأمسكتُ بيدها تنسى كل شيء وتأخذ بالضحك والكلام كسابق عهدها.

كنتُ أقول لها أحياناً:

ـ ما الذي تتطلعين إليه يا غرازييلا لساعات هناك عند طرف البحر؟ هل ترين شيئاً لا أراه أنا؟

ـ إنني أرى فرنسا وراء جبالٍ من الجليد.

ـ وما هو الشيء الجميل الذي ترينه في فرنسا؟

ـ إنني أرى فيها شخصاً يُشبهكَ يسير على

طريقٍ بيضاء لا نهاية لها. إنّه يمشي دون أن يلتفتَ إلى الوراء، بل يُتابعُ سيره إلى الأمام فأنتظرُ ساعاتٍ علّه يلتفتُ ويعودُ أدراجه، لكنّه لا يفعل».

ثم تُخفي وجْهها بين يديْها فلا ترفعُ جبينها الجميل حتى ولو ناديْتها بأرق الاسماء. عندئذ كان الحزنُ يتملّكني فأعودُ إلى غرفتي وأُحاولُ أنْ أطالع لكني أرى وجهها يحولُ بين الصفحة وبين عيني، ويُخيل إليّ أنّ للكلمات صوتاً فتأخذني رغبة بالبكاء لم أبحْ بها لغرازييلا. كان ذلك خطأً مني لأنّ دمعةً واحدة كانت يمكن أن تُسرّي عنها.

في الوقت نفسه تقريباً أخذت تشكُّ بأنّ الرسائلَ التي أتلقاها من فرنسا كانت تستقدمني إلى هناك، ولم تكن لتجرؤ على إحراقها أو رميها بل تحتفظ بها أحياناً عدة أيام وتربطها بأحد دبابيسها المذهبة وراء صورة العذراء المعلقة على الجدار قرب سريرها، ظناً منها أنّ القديسة التي كانت تُصلي لها طويلاً

ستساعدها في الدّفاع عن حبنا وأنّني سأتمكّن من البقاء قربها. وكنتُ أرى ما تفعله فيزداد حبّي لها، لكنّ الساعة كانت تقترب.

●●●

في إحدى الأمسيات الأخيرة من أيار قُرع البابُ وكانتِ العائلةُ كلها نائمة. فتحتُ فوجدتني أمام صديقي، الذي بادرني بالقول: «لقد أتيتُ لإصطحابك. هذه رسالةٌ من والدتك ولن ترفضَ أن تتبعني. لقد أوصيتُ على الجياد لمنتصف الليل والساعةُ الآن هي الحادية عشرة. لنرحل وإلاّ فلن ترحل أبداً وستموتُ والدتك حزناً. أنت تعرفُ أنّ جميع عائلتك تعتقدُ أنّ كلّ أخطائك ناجمةٌ عن ضعفها. . لقد فعلتْ كلَّ شيءٍ من أجلك فافعلْ شيئاً من أجلها. إنني أَعدُكَ بأنّني سأعود برفقتك الى هنا لقضاء الشتاء بأكمله وسنة بطولها. . لكن يجب أن تطيعَ أولاً أوامرَ والدتك. . .

عدتُ إلى غرفتي فألقيت بملابسي في حقيبتي وكتبتُ إلى غرازييلا كلَّ ما يمكن أنْ يجده قلبٌ في الثامنة عشرة من حنو، وكلّ ما يُمكن أنْ يُمليه العقلُ على ابن يُحبّ والدته. وتركتُ لها كلّ ما لديّ من مال كي تُساعدَ أهلها حتى عودتي.

بعد أنْ ختمتُ الرسالة اقتربت بخطى صامتة وركعتُ أمام باب غرفتها فقبّلتُ الحجرَ ثم دفعتُ الرسالة تحت الباب وأنا أضغط على نفسي كيْلا أنفجرَ باكياً..

أمسكَ صديقي بذراعي وأنهضني... وفي هذه اللحظة ايقظتِ الضجّةُ غرازييلا ففتحت الباب. كان القمر ينيرُ السطح فتعرفتِ المسكينة على صديقي ورأتْ حقيبتي فمدتْ ذراعيها وأطلقتْ صيحةً حزينةً ثم تهاوت... ركضنا إليها فحملناها إلى سريرها وكانت كلّ العائلة قد أفاقت، فَرُشّ الماءُ على وجهها وناداها أهلها فلم تستعد وعْيها إلاّ عندما سمعتْ

صوتي.. عندئذ، قال صديقي: «أنت ترى أنّها على قيدِ الحياة وإذا أطلْت الوداع فسينزلُ ذلك بها ضربةً أشدّ إيلاماً». قال ذلك وانتزع من حول عنقي ذراعي الفتاة الباردتين واقتلعني اقتلاعاً من المنزل. وما هي إلاّ ساعة حتى كنّا نسلك طريق روما في سكون الليل.

كنتُ قد تركتُ عدةّ عناوين لغرازييلا في الرسالة التي كتبتُها لها فوجدتُ في ميلانو أوّل تحرير منها تقولُ فيه أنّ جسدها مُعافى لكن قلبها مريض... إلاّ أنّها مع ذلك تؤمنُ بما وعدْتُها به وستنتظرني في شهر تشرين الثاني.

وعند وصولي إلى ليون وجدتُ رسالةً ثانيةً منها تقولُ لي فيها بمزيدٍ من الحنان إنّها واثقةٌ منّي. وقد وضعتْ فيها إحدى الزهور الحمراء التي كانتْ تُزيّن بها شعرها يوم الأحد. وأخبرتني أنّها قد أُصيبتْ بالحمى وأنّ قلبَها يُؤلمها لكنها تتحسنُ يوماً بعد يوم وقد أُرسلت لتغير المناخ عند إحدى بنات عمّها،

وهي أختُ لسيكّو. بقيتُ بعد ذلك أكثر من ثلاثة شهور دون أنْ أتلقى منها رسالةً واحدة. وكنتُ دائمَ التفكير بغرازييلا أتوقّع العودةَ إلى إيطاليا في مطلع الشتاء القادم. كان من واجبي أن أراها ثانيةً لكنني كنتُ في السنّ التي يخجل فيها المرء من انبل عواطفه، والتي لا يصمدُ فيه الحبُّ والحنان (وهما أجمل عطايا الخالق) أمام رياحِ هذا العالم. وكان من دواعي خجلي أنْ أقولَ لأصدقائي إنها ابنة صيادٍ رغم أنني لم انسها.. لكنّي لم أكن أفكرُ بها إلا بعيداً عن العالم وعن الآخرين. كم أخجلُ الآن من خجلي آنذاك! إنّ نظرةً واحدةً من نظراتها أفضلُ بكثيرٍ من ابتسامات فتيات طبقتي وبلادي. إنّ الفتى لا يعرفُ كيف يُحبُّ ولا يعرفُ قيمةَ أي شيءٍ حتى ولا قيمةَ السعادةِ الحقيقية إلاّ بعد أنْ يفقدها... إنّ الحبّ الحقيقي هو ثمرةُ الحياة اليانعة، وفي سنّ الثامنة عشرة يظنّ المرء أنّه يعرفه، لكنّه حقاً يجهله. وفي الطبيعة تتساقطُ الأوراقُ عندما تنضجُ الثمرة، ومثلُ هذا ينطبقُ على

الناس أيضاً. لقد فكرّتُ بذلك مراراً منذ أنْ أخذ الشَّعرُ الأبيضُ يزدادُ في مفرقي. كم كان بودي لو عرفتُ آنئذ قيمةَ زهرة الحب تلك!

في إحدى الأمسيات الأولى من تشرين الثاني، وعند عودتي من سهرةٍ قضيتُها بالرقص، سُلّمت إليّ رسالةٌ ورزمةٌ حَملها مسافرٌ قادمٌ من نابولي. تقول الرسالة إنّ أحد أصدقاء مُرسلها، وهو مديرٌ لمؤسسة من المرجان في نابولي قد كلّفه أنْ يُسلّم إليّ رزمةً مهمةً.. لكن بما أنّ الأخبار التي يحملُها إليّ حزينةً فهو لا يود مُقابلتي...

فتْحتُ الرزمةَ وأنا أرتجفُ، فوجدتُ فيها أوّلاً رسالةً أخيرةً من غرازييلا تقول فيها ببساطة: «يقول الطبيب إنّني سأموتُ بعد ثلاثة أيام... وأنا أُريدُ أنْ أودّعكَ قبل أن أفقدَ قواي. لو كنتَ هنا لعشت! لكنها إرادةُ الله. وعمّا قريب سوف أتحدثُ إليك إلى الأبد من أعلى السماء. أحببْ روحي فستُرافقكَ كلّ

حياتك! إنني أتركُ لك شعري الذي قصصْتهُ ذات ليلةٍ من أجلك كي يبقى شيءٌ مني بقربك».

أمضيتُ الليل كلّه ورسالتها بين يدي. وعند طلوع النهار فقط استجمعتُ قواي وفضضتُ الرزمةَ فوجدتُ فيها كل شعرها كما كان في الليلة التي أرتْهُ لي فيها في بروسيدا، وكان مُختلطاً ببعض أوراق الخنشار التي علقت به في تلك الليلة. ومنذ ذلك النهار ألقى موتُها بظله على وجهي وشبابي.

●●●

بعد اثنتي عشرة سنة عُدتُ إلى نابولي وبحثتُ عن أُسرتها فلم أجد مَنْ يعرفَ شيئاً في المارجيللينا. أمّا في بروسيدا فقد تهدم المنزل الصغير وتحوّل إلى كومةٍ من الحجارة الرمادية فوق قبوٍ يأوي إليه الرعاة مع ماعزهم اثناء المطر.. إنّ الزمن يمحو بسرعةٍ ما على الأرض.. لكنّه لا يمحو أبداً الحبَّ الأولَ من القلب الذي عاشه.

يا لغرازييلا المسكينة لقد انقضت أيامٌ كثيرةٌ أحببتُ فيها وأحبّني الغير، وأضاءتْ طريقي المظلمة فتياتٌ جميلاتٌ أخريات ومشاعر رقيقة أخرى، وتفتّحتْ أمامي نفوسٌ من أجمل وأقدس ما خلقهُ الله على الأرض.. لكن كلّ ذلك لم يُلن من قلبي.. وكلّما تقدّمتْ بي السن كلّما ازددتُ اقتراباً منكِ بالفكر.. فذكراكِ كنار قارب والدك التي يزدادُ لمعانها كلّما ابتعدتْ.. أنا لا أعرفُ أين ترقدين ولا إذا كان أحدٌ لا يزال يبكيكِ في بلدكِ، لكنّ ضريحك الحقيقي في قلبي.. واسمك لا يزال يُحدثُ في نفسي الأثر ذاته. إنني احبّ اللغة الايطالية بسبب اسمك. وأمواج خليج نابولي الزرقاء المضيئة سوف تحملُ إليّ دوماً صورتكِ النضرة. وسأظلّ أكرهُ نفسي. لكنّ النفوس تغفرُ بجوار الله، وروحكِ لا بدّ أن تكون قد غفرتْ لي.. فمزيداً مزيداً من الغفران.

●●●

الاسئلة

١ ـ ما هي مُلابسات سفر الكاتب إلى إيطاليا؟
٢ ـ لِمَ قرّر الرحيلَ قبل تلقي ردّ والده؟
٣ ـ كيف عاملَ داود ورفيقه الكاتبَ أثناء السفر؟
٤ ـ بماذا فوجىء الكاتب غداة وصوله إلى روما؟
٥ ـ بماذا قضى أيامهُ فيها بصحبة الفتاة؟
٦ ـ كيف توثّقت عُرى الصداقة بين الكاتب وشقيق الرسّام؟
٧ ـ ما هو مفهوم الحريّة لديه؟
٨ ـ كيف قام بدراسة حيّة لروما؟
٩ ـ كيف عاش الكاتب في نابولي؟
١٠ ـ أيّة حياةٍ قرّر أن يعيشها مع صديقه، ولماذا؟
١١ ـ كيف كانتْ تجربتهما الأولى مع هذه الحياة؟

١٢ ـ ما الذي جعل تلك الحياة أصعب وأشق؟
١٣ ـ كيف جابه الصديقان والصيادان العاصفة؟
١٤ ـ كيف انتهت تلك المغامرة؟
١٥ ـ ما رأيك باستقبال العائلة للناجين من العاصفة؟
١٦ ـ ما الانطباع الأول الذي تركه الشابان في نفس المرأة العجوز؟
١٧ ـ كيف قابلت الأسرة ضياع القارب؟
١٨ ـ كيف أبدل الشابان حُزنها بالفرح؟
١٩ ـ كيف قضيا أيامهما في دار الصياد؟
٢٠ ـ هل أثّرت القراءاتُ الأولى في نفوس أولئك البسطاء، ولماذا؟
٢١ ـ كيف تمضي أُسر الجزيرة أُمسياتها؟
٢٢ ـ ما الذي جاء بأسرة الصياد إلى بروسيدا؟
٢٣ ـ أيّ كتابٍ أثرّ في نفوس الأسرة، ولماذا؟
٢٤ ـ كيف كانتِ العودة إلى البحر؟
٢٥ ـ لماذا رحل صديقُ الكاتب؟

٢٦ ـ ما الأثر الذي تركه ذلك الرحيل؟

٢٧ ـ بمَنِ استنجد الكاتب في مرضه؟ ومَنْ لبى نداءه؟

٢٨ ـ كيف تُفسّر شفاءه في اليوم التالي؟

٢٩ ـ كيف قضى يومه الأول بين أفراد الأسرة؟

٣٠ ـ كيف تحسّنت أحوال الأسرة المادية؟

٣١ ـ ممن كانت الفتاة تغار؟

٣٢ ـ ما الصّلة التي جمعتْ بين الشاب والفتاة؟

٣٣ ـ كيف فكرتِ الاسرة بعقد خطبة غرازييلا على ابن عمها؟

٣٤ ـ ما الذي حدث عشيّة عيد الميلاد؟ لِمَ غادر الكاتب المنزل؟

٣٥ ـ كيف قضى فترة الأعياد؟

٣٦ ـ ما الذي حدث في فترة غيابه؟

٣٧ ـ لماذا فرّت غرازييلا؟

٣٨ ـ أين عثر عليها الكاتب؟ وكيف كان لقاؤهما؟

٣٩ ـ كيف علمتِ الأسرة بمكان وجودها؟

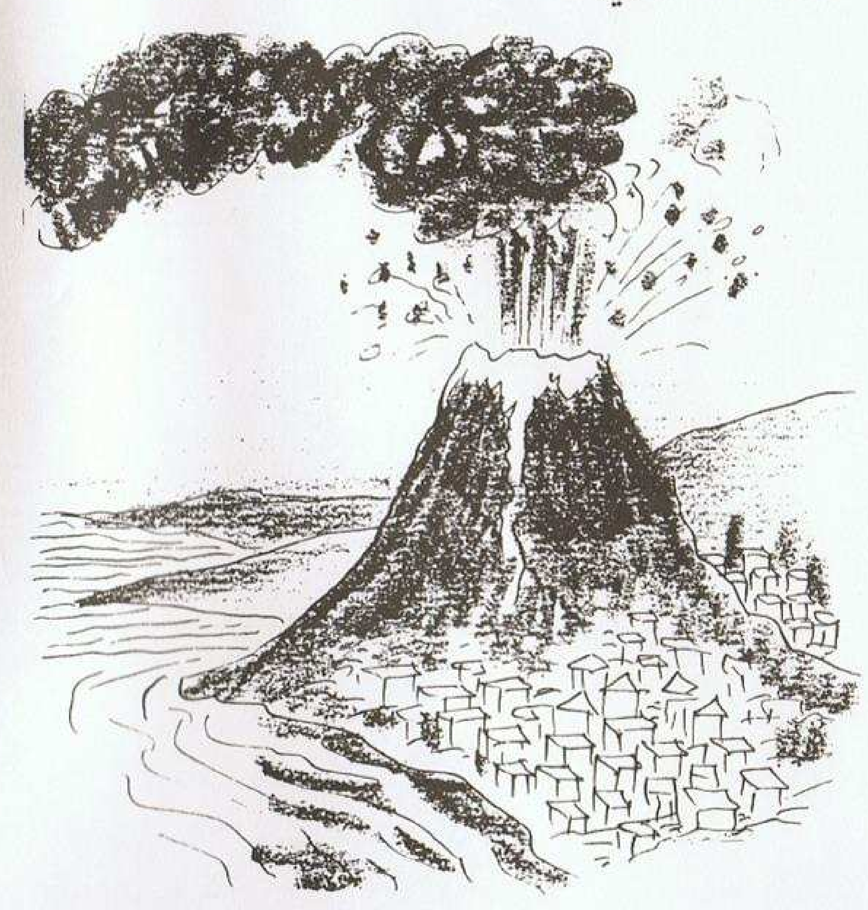
٤٠ ـ ما الذي كان يُعكّر صفو عيش الفتى والفتاة؟

٤١ ـ كيف رحل الكاتب؟

٤٢ ـ الحبّ الحقيقي يُشبه. . . ماذا؟

٤٣ ـ كيف تلقّى الكاتبُ نبأ موت غرازييلا؟

٤٤ ـ لماذا يُنهي الكاتب قصته بطلب الغفران؟



قصص
عالمية

